
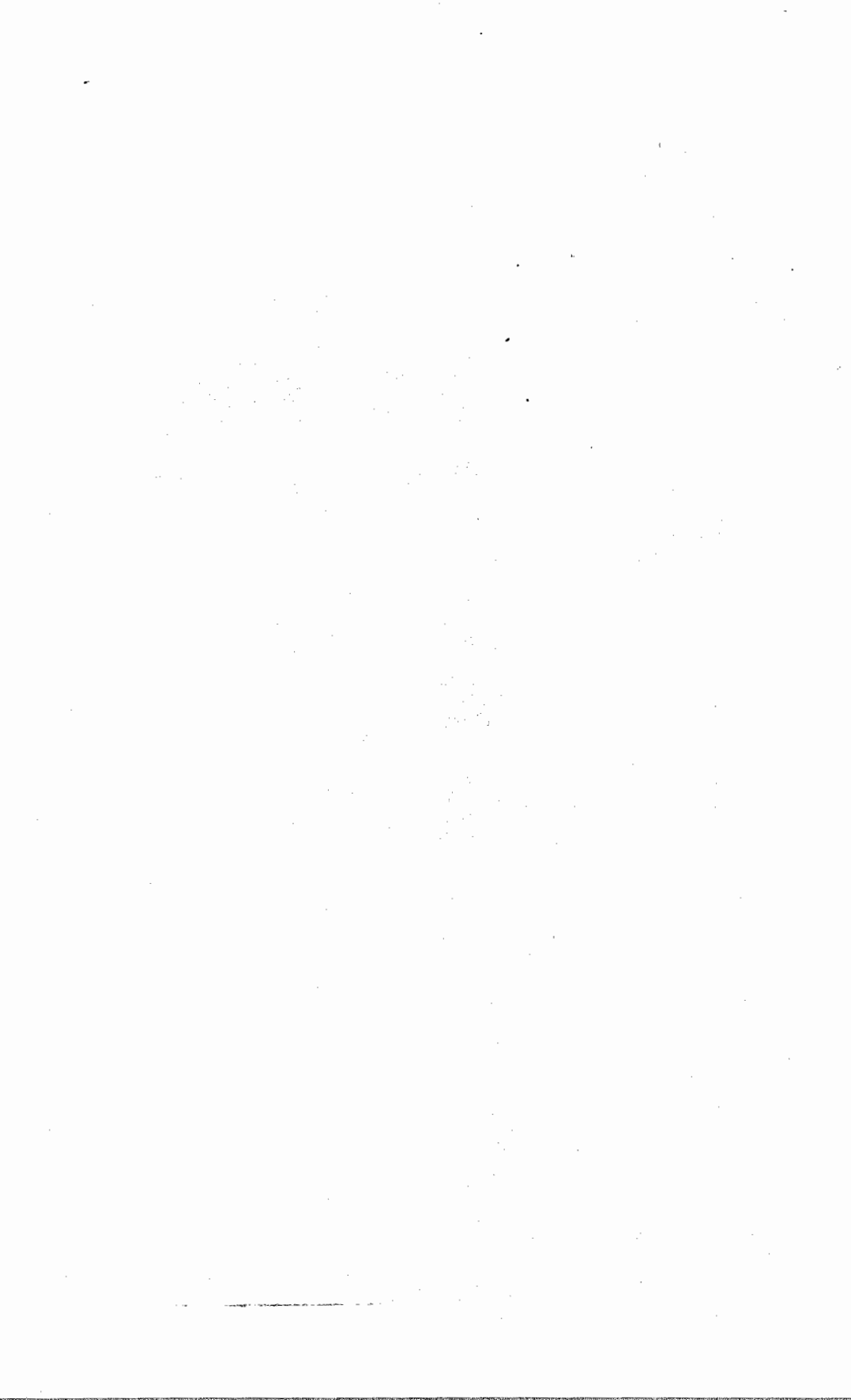


# عُمُرُ الشَّعْرِ عِنْدَ الْجَاحِظِ عرض ومناقشة

بقلم الدكتور  
فرج السيد راغب مندور  
الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد  
كلية اللغة العربية - فرع جامعة الأزهر بالقازيق





## عُمُرُ الشَّعْرِ عِنْدَ الْجَاحِظِ عرض ومناقشة

بقلم الدكتور

فرج السيد راغب مندور

الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية - فرع جامعة الأزهر بالرقازيق

بسم الله الرحمن الرحيم

### تقديم

الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه  
نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ، والتابعين لهم  
بإحسان إلى يوم الدين .



وبعد :

فإن قضية عُمُرِ الشَّعْرِ من القضايا الشائكة ، والمسائل المعقدة ،  
لأنها تتصل بأوليّة الشعر الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، وقد  
أثّرت هذه القضية في القرن الثّاني الهجري حين نهض العلماء  
الرّواة يجمعون الشعر القديم وبخاصة الشعر الجاهلي يحدوهم إلى  
هذا غاية سامية ، وهدف نبيل ، ومقصد سنّي هو خدمة لغة القرآن  
الكريم والحديث النبوي الشريف .

وقد تمكن هؤلاء العلماء الرّواة من جمع كثير من أشعار  
الشّعراء الجاهليين والإسلاميين ، مميّزين بين صحيح الشعر  
ومنحوله ، وتدوين ما صحّت نسبته إلى قائله في دواوين تحوي  
على شعر كل شاعر ، أو تحوي على شعر شعراء كل قبيلة ، أو  
اختيار قصائد من شعر الشعراء وتدوينها في مجموعات كما فعل  
المفضل الضّبيّ (ت ١٧٨هـ) في "المفضليّات" والأصمعي عبد الملك  
بن قريب (ت ٢١٦هـ) في "الأصمعيّات" .

ولم تقف جهود العلماء الرواة عند مجرد جمع الشعر القديم وتدوينه ، وإنما صنف بعضهم كتباً تشرح غريب ألفاظه ، وتفسر معانيه وتكشف عن خفي دلالاته ، وتوضح سرّ حسنه وجودته ، أو سبب قبحه ورداعته وتُعرف بأصحابه وقائله ، مشيرين في أثناء ذلك إلى أوائل الشعراء وأقدمهم ، وأحياناً كانوا يحددون زمن بعضهم ، ومتى كانوا قبل الإسلام؟.

وفي النصف الأول من القرن الثالث الهجري تحديداً قبل سنة ٢٣٣ للهجرة ألف أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) كتابه المشهور باسم "كتاب الحيوان" عرض فيه لقضية عمر الشعر محدداً إياه بمائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، أو بمائتي عام بغاية التقدير والاستظهار ، مؤيداً كلامه بما وجدّه في شعر امرئ القيس ، وبما اطلع عليه من ثقافات الأمم الأخرى وبخاصة الثقافة اليونانية .

وقد تلقى كثير من العلماء والباحثين - قدامى ومعاصرين - رأي الجاحظ بالتسليم والقبول ثقة منهم في علم الجاحظ ، وسداد رأيه ، ودقة نظره . أما من خالفه الرأي فقد اقتصر على إظهار الشك وإبداء الرّيب وعدم القبول مكتفياً بالقول إن الشعر لا يمكن أن يكون عمره على النحو الذي حدّده الجاحظ ، لأن العرب أمة شاعرة ، والشعر فيها عريق منذ أقدم العصور .

ولم أجد - في حدود مطالعاتي - من ناقش رأي الجاحظ مناقشة علمية جادة تكشف عن فساد رأيه<sup>(١)</sup> ، وبطلان ما ذهب إليه سوى ما كان من الشيخ محمود محمد شاكر - يرحمه الله - ( ت ١٤١٨هـ -

(١) استدراك : الراقعي ناقش هذه القضية في كتابه : تاريخ آداب العرب ج ١ ود/محمد النويهي ناقش هذه القضية باستفاضة في كتابه "تاريخ الأدب العربي" .

- ١٩٩٧م) في كتابه "قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام". ولكن الشيخ محمود محمد شاكر - يرحمه الله - كان على عجلة من أمره في مناقشة رأي الجاحظ ؛ لأنه كان معنيا - في المقام الأول - بدراسة قضية الشعر الجاهلي كما وردت في كتاب "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ - ) . وابن سلام والجاحظ متعاصران ، ومن ساكني مدينة واحدة هي مدينة البصرة .

ولما كان الشيخ محمود شاكر - يرحمه الله - قد ترك مساحة كبيرة ، وجوانب كثيرة في مناقشته رأي الجاحظ في عمر الشعر ، فقد عقدنا العزم على خوض غمار هذه القضية مستمدين من الله العون ، سائلينه التوفيق والسداد ، وكان منهجنا - كما هو واضح في هذا البحث - يتمثل في عرض رأي الجاحظ بأمانة وصدق دون تحريف أو تأويل ، وبيان الدوافع والأسباب التي أدت به إلى القول بهذا الرأي ، ومناقشة أدلته وبراهينه ، ثم عرض منهجه في رواية الشعر ، وإقباله على حفظه وتذوقه ، حيث إن هذا المنهج مع ما اتصف به الجاحظ من إعجاب بنفسه ، وزهو بسعة ثقافته ، واختيال بموفور علمه ، ورغبته في التفوق على سابقه ومعاصريه ، كل ذلك كان من وراء هذا الرأي مما جعل الجاحظ لا يلتفت إلى أشياء كثيرة لا تؤيد رأيه ، ولا تقوي حجته ، ولا تؤكد ما ذهب إليه .

وقد اعتمدنا في توثيق النصوص والإحالة إلى المراجع على الطريقة المتبعة في أسلوب ( MLA ) فأشرقا إلى المراجع داخل المتن بالأرقام حسب تسلسل ذكرها في فهرس المراجع الملحق بآخر البحث متبوعا برقم الجزء إن كان للكتاب أجزاء ، ثم أرقام الصفحات المعنية بين قوسين مربعين على مستوى السطر .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والباحث

## تهديد

### الجاحظ وعصره :

عُرف عن أبي عثمان عمر بن بحر الملقب بالجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) حبّ العلم ، وسعة الثقافة ، والإحاطة بمعارف عصره عربية وغير عربية مع التمتع بعقل واسع ، ونظر سديد ، وذهن لمّاح ، ففي أخباره [٣٣ : ٧٤/٥] "أنه لم ينقطع عن القراءة والإطلاع والنظر في الكتب حتى آخر يوم من عمره ، وأنه مات والكتاب على صدره ، وأن موته كان يسبب سقوط مجلدات من الكتب وقعت عليه فقتلته".

وقد شهد له معاصروه بتنوّع قراءاته في شتّى العلوم والفنون ، يقول أبو العباس المبرّد (ت ٢٨٥ هـ) : [٦٥ : ٢٠٨] "ما رأيت أحرص على العلم من الجاحظ ، فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره ، أي كتاب كان". ويقول أبو هفان المهزّمى (ت ٢٥٧ هـ) [٦٥ : ١٣٠] : "ثلاثة لم أر قطّ ولا سمعت أحبّ إليهم من الكتب والعلوم ، الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحاق القاضي ، فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كأننا ما كان ، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر".

وقد دلّت كتب الجاحظ ومؤلفاته على موسوعية ثقافته واستيعابه ثقافات عصره عربية وفارسية وهندية ويونانية ، مع العلم الواسع باللغة ورواية الأشعار والأخبار قديمها وحديثها أصيلها ودخيلها .

وعصر الجاحظ يمثل العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، فيه انفتح العرب والمسلمون على مختلف العلوم وشتّى الثقافات ، وفيه غنى العلماء بالتأليف في مختلف العلوم ، ووضع أصولها ، وضبط قواعدها ، وتحرير مصطلحاتها ، وصياغة مسائلها صياغة علمية دقيقة ، وكان الشعر الجاهلي من أهم مصادر علوم الدّين

واللغة بالإضافة إلى العلوم التي تتصل بحياة العرب في الجاهلية ،  
وتتناول أخبارهم وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم في الحرب والسلم ،  
ووصف بيئتهم وما تحويه من نبات وحيوان وجماد . ولهذا أقبل  
العلماء على حفظ الشعر الجاهلي وروايته وتدوينه وتوثيقه سواء في  
ذلك شعر الشعراء أو شعر القبائل .

وقد أدت عناية العلماء بالشعر الجاهلي إلى تناول كل ما يتصل  
به من قضايا تدخل في صميم نظرية النقد ونظرية الأدب ، فترجموا  
للشعراء وعرفوا بهم ، وجعلوهم في طبقات حسب الجودة الفنية  
لأشعارهم ، على النحو الذي صنعه محمد بن سلام الجمحي  
(ت: ٢٣١هـ) في كتابه "طبقات فحول الشعراء" .

وكانت قضية أولية الشعر وتقصيد القصائد من أكبر القضايا  
التي شغلت أذهان العلماء في عصر الجاحظ ، فهل يسكت الجاحظ  
وهو الأديب العظم الراوية للأشعار والأخبار عن أن يدلي بدلوه في  
هذه القضية؟. الجواب : لا . فقد أعلن رأيه الذي تابعه عليه كثير من  
الباحثين والدارسين حتى العصر الحديث ثقة منهم بعقل الجاحظ  
وسداد رأيه ، واطمئنانا منهم إلى سعة علمه ، وغزارة معرفته ،  
وموسوعية ثقافته .

#### رأي الجاحظ :

لقد رأى الجاحظ أن الشعر العربي صغير السن ، حديث الميلاد ،  
وأن عمره لا يزيد على مائتي عام قبل الإسلام على أكثر التقدير ،  
وهو حين أعلن هذا الرأي لم يسقه غفلاً وإنما شفعه بالأدلة التي  
حسبها تدعم قوله وتؤكد ما ذهب إليه ، فقال : [١٧ : ١/٧٤] : "وأما  
الشعرُ فحديثُ الميلاد ، صغيرُ السنِّ ، أولُ من نهجَ سبيله ، وسهلُ  
الطريقِ إليه : امرؤُ القيس بنِ خُجر ، ومُهَلِّهْل بنُ ربيعة ، وكتُب  
أرسطاطاليس ، ومعلمه أفلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقراطس ،

وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالذهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل  
الأحقاب . ويدل على حداثة الشعر ، قول امرئ القيس بن حُجْر<sup>(١)</sup> :

إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسَنًا      ضَيَّعَهُ الدُّخْلُونَ إِذْ قَدَرُوا  
أَدَّوْا إِلَى جُلُوهِمُ خَفَارَتِهِ      وَلَمْ يَضِعْ بِالْفَيْبِ مَنْ نَصَرُوا  
لَا حِمِيرِيَّ وَقَى وَلَا غُلَسَ      وَلَا اسْتَأْغَرَ بِحُكْمِهَا التَّفَرُّ  
لَكِنْ عَوِيرَ وَقَى بِدَمِيَّتِهِ      لَا قِمَصَرَ عَابَهُ وَلَا عَمُورَ

فانظر ، كم كان عمرُ زُرارة ! وكم كان بين موت زُرارة ومولد  
النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام ؟. فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له -  
إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا  
بغاية الاستظهار فمائتي عام .

ونلاحظ أن الجاحظ في هذا النص مُدْلٌ بثقافته الواسعة عربية  
وغير عربية ولذا راح يلتمس الأدلة والحجج التي تؤيد رأيه ، فكان  
بعضها من ثقافته اليونانية ، والبعض الآخر من الشعر العربي  
وتاريخ العرب .

وقبل أن تناقش رأي الجاحظ وادعاءه حداثة مولد الشعر العربي  
وصغر سنه وأن عمره لا يزيد على مائتي عام قبل الإسلام ، وأن  
أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه مهلهل بن ربيعة وأمرؤ  
القيس بن حُجْر ثود أن نشير إلى أن رأيه هذا قد ورد في أثناء حديثه  
عن أساليب الأمم القديمة في تخليد مفاخرها وتسجيل مآثرها فقال  
[١٧ : ٧١/١-٧٣] : "فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها ، وتحصين  
مناقبها ، على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال . وكانت  
العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك على  
الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها ، ....  
وذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان ، فبنوا مثل كرد بيداد ،

(١) الأبيات في ديوان امرئ القيس ص (١٢٦) بتحقيق السندوبي .  
وفيه : " ابْتَنَوْا حسباً " .



وبنى أردشير بيضاء اصطخر ، وبيضاء المدائن ، والحضر ، والمدن والحصون ، والقناطر والجسور ، والنواويس ، ... ثم إن العرية أحببت أن تشارك العجم في البناء ، وتتفرد بالشعر ، فبنوا غمدان « وكعبة نجران<sup>(١)</sup> ، وقصر مارد ، وقصر مأرب ، وقصر شعوب والأبلى الفرد ، ... وغير ذلك من البنيان ، ... فقال بعض من حضر: كتبت الحكماء وما دوت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات ، والآداب والأرفاق<sup>(٢)</sup> ، من القرون السابقة والأمم الخالية ، ومن له بقية ومن لا بقية له ، أبقي ذكراً وأرفع قدراً وأكثر رداً ، لأن الحكمة أنفع لمن ورثها ، من جهة الانتفاع بها ، وأحسن في الأحداث ، لمن أحبت الذكر الجميل » .

وأخذ الجاحظ يوازن بين هذه الطرائق والأساليب التي اعتمدتها الأمم القديمة في تخليد مآثرها ومناقبها وأبقي ذكراً وأرفع قدراً وأخلد على مرّ الدهور والأزمان ، وأكثر نفعا لجميع الأمم والشعوب فرأى أن الكتب تفضل الشعر والبنيان ، لأن البنيان قد يهدم ويطمس وأما الشعر فصغير السن حديث الميلاد ونفعه مقصور على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب وأنه لا يمكن أن يترجم إلى لغات الأمم الأخرى وإذا ترجم ذهب حسنه وتقطع نظمه وسقط موضع التعجب منه ، وأما الكتب فإنها أبعد أثراً في تقييد المآثر ، وتخليد المفاخر وأكثر نفعا بما تحويه من علوم وحكم وآداب ، ونفعها ليس مقصوراً على أهلها ، وإنما هو عام وشامل لكل الأمم ، في كل زمان ، وفي كل لغة إن هي ترجمت من لسانها ولغتها إلى السنة ولغت الأمم الأخرى ترجمة صحيحة خالية من جهل المترجمين ، وتصحيف الكاتبين .

(١) كعبة نجران : بيعة بناها بنو عبد المدان بن النيان الحارثي وكانوا نصارى . وقد عظموا هذه البيعة مضاهاة للكعبة .

(٢) الأرفاق : ما يستعان به .

يقول الجاحظ [١٧: ١/٧٣-٧٥]: "والكتبُ بذلك أولى من بُنيان الحِجَارَةِ وحِيطَانِ المَدَرِ ؛ لأنَّ من شأنِ الملوك أن يطمِسُوا على آثارِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وأن يُمَيِّتُوا ذَكَرَ أَعْدَائِهِمْ ، فَقَدْ هَدَمُوا بِذَلِكَ السَّبَبِ أَكْثَرَ المَدَنِ وَأَكْثَرَ الحَصُونِ ، كَذَلِكَ كَانُوا أَيَّامَ العِجَمِ وَأَيَّامَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَعَلَى ذَلِكَ هُمْ فِي أَيَّامِ الإِسْلَامِ ، كَمَا هَدَمَ عَثْمَانُ<sup>(١)</sup> صُومَعَةَ عُمدَانِ ، وَكَمَا هَدَمَ الأَطَامَ الَّتِي كَانَتْ بِالمَدِينَةِ ، وَكَمَا هَدَمَ زِيَادُ<sup>(٢)</sup> كُلَّ قَصْرِ وَمَصْنَعٍ كَانَ لِابْنِ عَامِرٍ<sup>(٣)</sup> ، وَكَمَا هَدَمَ أَصْحَابُنَا<sup>(٤)</sup> بِنَاءَ مَدَنِ الشَّامَاتِ<sup>(٥)</sup> لِبْنِي مروان. وأما الشَّعْرُ فَصَغِيرُ السِّنِّ حَدِيثُ المِيلَادِ ... وَفَضِيلَةُ الشَّعْرِ مَقْصُورَةٌ عَلَى العَرَبِ ، وَعَلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِلِسَانِ العَرَبِ. وَالشَّعْرُ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ يُتَرْجَمَ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ النُّقْلُ ، وَمَتَى حُوِّلَ تَقَطَّعَ نَظْمُهُ وَبُطِلَ وَزْنُهُ ، وَذَهَبَ حُسْنُهُ ، وَسَقَطَ مَوْضِعُ التَّعْجِبِ ، لَا كَالكَلَامِ المَنْثُورِ ، وَالكَلَامُ المَنْثُورُ المَبْتَدَأُ عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنُ وَأَوْقَعُ مِنَ المَنْثُورِ الَّذِي تَحُولُ مِنْ مَوْزُونِ الشَّعْرِ .... وَقَدْ نُقِلَتْ كُتُبُ الهِنْدِ ، وَتُرْجِمَتْ حُكْمُ اليُونَانِيَّةِ ، وَحُوِّلَتْ آدَابُ الفَرَسِ ، فبَعْضُهَا أَزْدَادًا حُسْنًا ، وَبَعْضُهَا مَا انْتَقَصَ شَيْئًا ، وَلَوْ حُوِّلَتْ حِكْمَةُ العَرَبِ ، لَبُطِلَ ذَلِكَ المَعْجَزُ الَّذِي هُوَ الْوِزْنُ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَوْ حَوَّلُوهَا لَمْ يَجِدُوا فِي مَعَانِيهَا

(١) هو: عثمان بن عفان رضي الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين . (ت: ٣٥ هـ) .

(٢) هو: زياد بن أبيه أمير من الدهاة والقادة الفاتحين ، ولي لمعاوية بن أبي سفيان البصرة والكوفة وسائر العراق (ت: ٥٣ هـ) . الأعلام ٣/ ٥٣ .

(٣) هو: عبد الله بن عامر بن كرز أمير فاتح ولي البصرة في أيام عثمان بن عفان ، وكان شجاعا سخيا محبا للعرمان . (ت : ٥٩ هـ) . الأعلام ٤/ ٩٥ .

(٤) يقصد الجاحظ خلفاء بني العباس .

(٥) الشامات : مدن الشام . بيت المقدس وطبرية والغوطة وحمص وقسرين وحلب . للعقد الفريد ٦/ ٢٥١-٢٥٥ .

شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم وقطّـنهم وحكمهم ، وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . فقد صحَّ أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر ، من البنيان والشعر" .  
لقد آثرنا نقل هذا النص من كلام الجاحظ على الرُّغم من طوله لعدة أمور:

- ١- لنقطع الطريق على من قد يشك أو يتوهم أن الجاحظ لم يقل بصغر سن الشعر العربي وحداثة ميلاده ، وإنما هو رأي دسه عليه بعض الناسخين أو الوضّاعين ، وبخاصة أنه رأي انفرد به الجاحظ ، ولم يرد - فيما نعلم - في كتبه ومؤلفاته الأخرى .
- ٢- ليُعلم أن رأي الجاحظ وقوله بحدّاثه مولد الشعر وصغر سنّه لم يكن خاطرة سنحت له في أثناء حديث يتصل بالشعر من قريب أو بعيد ، فأحبّ ألا يفوت الفرصة على القارئ ، فأتيتها على عجل دون نظر أو تمحيص ، وإنما هو رأي جاء متمكناً في موضعه من كتاب الحيوان ، ومؤيِّداً بالأدلة ، ومتسقاً مع ما قبله وما بعده من حديث عن طرائق الأمم القديمة ووسائلها في تخليد مآثرها وتسجيل مناقبها ، حيث رأى أن الأمم التي خلّدت مفاخرها في الكتب أفضل من الأمم التي اتخذت البنيان أو الشعر؛ لأنّ البنيان قد يهدم ، وتطمس آثاره ، فتذهب فائدته ، ويزول نفعه ، وأما الشعر الذي اتخذته العرب ديواناً لها فنفعه مقصور عليها ، وعلى من تكلم بلسانها ، ثم إنه - في نظر الجاحظ - ليس بقديم ولا بضارب بجذوره في أعماق التاريخ ، وإنما هو مسبوق بكتب الأمم الأخرى ، وبخاصة كتب الفلاسفة من أمثال "أفلاطون" ( PLATO ) ( ت: ٣٤٧ ق.م ) ، و"أرسطو" ( ARISTO ) ( ت: ٣٢٢ ق.م ) حيث إن هذه الكتب كما قال أقدم من

الشَّعْر بالذُّهُور قبل الذُّهُور، وبالأحقاب قبل الأحقاب .  
 ٣- ليتبين أن هذا الرَّأي ليس معاً قاله الجاحظ في مرحلة الشباب  
 وسن الطلب وإنما قاله بعد أن كبرت سنّه ، واتسعت معارفه ،  
 وصار علماً من أعلام الثقافة والأدب في عصره ، فقد ألف كتاب  
 الحيوان وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وأهداه إلى أحد كبار  
 الأئباء والوزراء في عصره وهو محمد بن عبد الملك الزييات  
 المتوفى سنة (٢٣٣هـ) فلقابه عليه . يقول الجاحظ [٦٥ :  
 ٢١٠] : " أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك  
 فأعطاني خمسة آلاف دينار " . وفي هذا رد على الدكتور طه  
 الحاجري حيث قال في مقدمة تحقيقه كتاب البخلاء [١٥ : ٣٧]  
 : "قأما كتاب الحيوان فنستطيع القطع في طمأنينة علمية بأنه  
 كتبه في أواخر حياته بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ" .

ونعود إلى مقصدنا من هذا البحث وهو مناقشة دعوى الجاحظ  
 صغر سنّ الشعر العربي ، وحادثة ميلاده ، وأن أول من نهج سبيله  
 وسهّل الطريق إليه مهلهل بن ربيعة وابن أخته امرؤ القيس بن حُجْر  
 لتتعرّف على الأسباب والدوافع التي أوحّت إليه بهذا الرَّأي ، ولنبين  
 مدى قوّة أو ضعف الأدلة التي اعتمد عليها الجاحظ ومدى توفيقه  
 فيما ذهب إليه .

#### أولاً : الأسباب والدوافع :

يرى العلامة محمود شاكر - رحمه الله - (ت: ١٤١٨هـ) -  
 ١٩٩٧م) [٣٨ : ١٤ - ٢٠] أن أبا عثمان الجاحظ في قوله بحدّاثه  
 ميلاد الشعر وصغر سنّه ، وأن مهلهل بن ربيعة وامراً القيس بن  
 حُجْر هما أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه ، كان مدفوعاً  
 بإعجابه بنفسه ، واختياله بسعة علمه ، وثقته بحسن رأيه وسداد  
 نظره ، وقدرته على الإتيان بما لم يسبقه إليه أحد من نقاد الشعر

وحفظته وبخاصة معاصروه من أمثال محمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣١هـ) الذي تناول قضية أولية الشعر والشعراء في مقدمة كتابه "طبقات فحول الشعراء".

وقد ذهب الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - إلى أن الجاحظ استقى رأيه هذا من مصدرين :

الأول : ما روي في كتب الحديث والأدب من أن رسول الله - ﷺ - قال : "امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار". وهو في كتب الحديث مروي عن هشيم بن بشير السلمي الواسطي (١٤٠-١٨٣هـ) . أما كتب الأدب فروته عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى (ت: ٢٠٤هـ) .

يقول الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - [٣٨: ١٤] : "وقد كنت شديد العجب من أمر أبي عثمان ، أتعجب من أين أتى بهذه الدعوى التي بنى عليها استظهاره أن امرأ القيس هو أول من نهج سبيل الشعر ، وسهل طريقه ؟ . وكان قد بدا لي قتيما أن أبا عثمان قد أخذ هذا من الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) في مسنده [٢٧: ٢٩٠/٦ الحديث رقم (٧١٢٧)] عن هشيم ، حدثنا أبو الجهم الواسطي ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار" . وهذا الخبر نفسه رواه الإمام البخاري (ت: ٢٥٦هـ) [٨: ٢٠ الحديث رقم ١٥٤] قال : قال مسدد ، حدثنا هشيم ، حدثنا شيخ يكنى أبا جهم ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : " صاحب لواء الشعراء إلى النار امرؤ القيس لأنه أول من أحكم الشعر" .

وأشار [٣٨: ١٥] إلى ما يدور في كتب الأدب عن ابن الكلبى أن رسول الله - ﷺ - ذكر امرأ القيس فقال : "ذاك رجل مذكور في

النَّبِيَّ شَرِيفَ فِيهَا ، مَنْسِيٍّ فِي الْآخِرَةِ خَامِلٍ فِيهَا ، يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَهُ لَوَاءُ الشُّعْرَاءِ إِلَى النَّارِ .

وقال [٣٨ : ١٥] : "وَكُنْتُ أَظُنُّ أَوْ أَرْجَحُ أَنَّهُ تَرْجَمَ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْكَلَامِ : أَنَّ لِمُرَا الْقَيْسِ هُوَ "أَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ الشُّعْرَ" فَقَالَ : "هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَهَجَّ سَبِيلَ الشُّعْرِ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ" ، وَالتَّشَابَهُ بَيْنَ سِيَاقِ الْقَوْلَيْنِ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ ، وَهَذَا جَائِزٌ جَدًّا ؛ لِأَنَّ أَبَا عَثْمَانَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ كَلْبِيَّانَ وَالْحَيَوَانَ وَغَيْرَهُمَا أَحَادِيثَ مِنْ أَحَادِيثِ هُشَيْمِ بْنِ بَشِيرٍ الْوَلَسْطِيِّ الْإِمَامِ الثَّقَفَةِ (١٠٤ - ١٨٣هـ) وَرَوَى كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ مِنْ كِتَابِ ابْنِ الْكَلْبِيِّ هُشَامِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ السَّائِبِ (ت : ٢٠٤هـ) فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ رَأْيَ هَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ ، فَأَخَذَ مِنْهُمَا مَا أَخَذَ ، وَصَاغَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَأَلْقَاهَا إِلْقَاءَ الْوَائِقِ بِصَحَّتِهَا" .

الثَّانِي : كِتَابُ "طَبَقَاتِ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ" لِمُحَمَّدِ بْنِ سَلَامِ الْجُمَحِيِّ . وَيَعَدُّهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ أَهْمَ مَصْدَرٍ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْجَا حِظُ فِي صِيَاحَةِ دَعْوَاهُ ، حَيْثُ إِنَّ الْجَا حِظَ قَرَأَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ وَتَأَثَّرَ بِهِ يَقُولُ الشَّيْخُ شَاكِرٌ [٣٨ : ١٦] : "فِي خِلَالِ مَرَا جَعَتِي نَصَّ كِتَابُ "طَبَقَاتِ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ" لِابْنِ سَلَامٍ وَتَتَّبَعِي مَا نَقَلَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كِتَابِهِ إِلَى كِتَابِهِمْ ، وَجَدْتُ الْجَا حِظَ قَدْ نَقَلَ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كِتَابِ "الْحَيَوَانَ" خَاصَّةً عَنْ ابْنِ سَلَامٍ أَقْوَالَ وَأَخْبَارًا هِيَ بِنَصِّهَا مَوْجُودَةٌ فِي نَسْخَتِي مِنْ "طَبَقَاتِ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ" فَتُبْتُ عِنْدِي أَنَّ الْجَا حِظَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى نَسْخَةٍ مِنْ كِتَابِ ابْنِ سَلَامٍ فَنَقَلَ مِنْهَا" .

وعن أثر كتاب ابن سلام في الجاحظ يقول الشيخ شاكر [٣٨ : ١٩] : "ولما كان محمد بن سلام قد صدر كتابه في "طَبَقَاتِ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ" ، بِرِسَالَةٍ فِي الشُّعْرِ الْقَدِيمِ وَفِي رِوَاةٍ هَذَا الشُّعْرِ ، سَالِقُهُ النَّظْرُ إِلَى ذِكْرِ الشُّعْرِ فَقَالَ [٢١ : ٣٩/١] "أَوَّلُ مَنْ قَصَدَ الْقَصَائِدَ وَذَكَرَ الْوَقَائِعَ، الْمَهْلَهْلُ بْنُ رَبِيعَةَ التَّغْلَبِيِّ" ثُمَّ قَالَ [٢١ : ٥٥] :

" امرؤ القيس بن حُجر سبق العرب إلى أشياء ابتدعتها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار ، ورقة النسيب..."، ولما قرأ أبو عثمان مقالة ابن سلام في أول كتابه، أعجبته ، وهزته ، وذكرته بالخبر الذي جاء فيه أن امرأ القيس " صاحب لواء الشعراء إلى النار ؛ وأنه أول من أحكم الشعر" بدا له أن يصوغ من ذلك كله قضية يزيد فيها علي ابن سلام ، فاجتهد فصاغ قضيته الأولى : " أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه ، امرؤ القيس ومهلل بن ربيعة " وأعجبه ما صاغ إعجابا مفرطاً ، فإنه ابتدع ما لم يسبق إليه ، ولم يُبال بهذا الفرق الظاهر بين قوله هو : " أول من نهج سبيل الشعر" وقول ابن سلام : " أول من قصد القصائد" وقول الخبر الهالك أيضاً "أول من أحكم الشعر". فإن ألفاظ الخبرين جميعاً لا تتناول الحكم على أولية الشعر نفسه بل هي مقصورة على أولية تقصيد القصائد وذكر الوقائع فيها ، أو على أولية إحكام الشعر ... بيد أن أبا عثمان لم يبال طرفة عين أن يتقل هذه الأولوية من معنى خاص محدود هو تقصيد القصائد وتطويلها إلى معنى عام مطلق جامع هو الشعر نفسه . واستحوذ على أبي عثمان إعجابه بنفسه ، وثقته بحسن رأيه ونظره ، أن يزداد سبقاً في الاستخراج والاستنباط . فأعاد صياغة القضية صياغة جديدة يلقيها مُسلمة لا تحتاج إلى برهان فقال : "أما الشعرُ فحديثُ الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حُجر ، ومهلل بن ربيعة" .

وعن فرح الجاحظ بما توصل إليه يقول الشيخ محمود شاكر [٣٨: ٢٠] : "وقد ظنّ أبو عثمان ما ظنّ في لطف ما سبق إليه ، وفي براعة ما ابتدعه ، واحتملته خيلاؤه التي لا تفارقه فقيدته في أول كتاب الحيوان" وكان حديث عهد بقراءة كتاب ابن سلام . ليكون

عند نفسه وعند الناس قد أربى على الجمحي « وافترع قولاً هو أحسن من قوله وأوثق ، وأنه أتى على ما أبهجه ابن سلام فأضاهه ، ونفى عنه الظلام » .

إن ما ذكره الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - عن تأثر الجاحظ بابن سلام حق لا ريب فيه ، ولكنه ليس كل الحقيقة ، فهناك عوامل أخرى دفعت الجاحظ إلى القول بما قال عن عُمَرُ الشَّعْر الجاهلي ، وساعدته على أن يجد ما ظن أنه دليل على صدق دعواه . وعذر الشيخ في ذلك أنه كان معنيا بكتاب ابن سلام طبقات فحول الشعراء" وبين ما أثارته مقدمة هذا الكتاب من قضايا تتصل بالشعر الجاهلي ومنها قضية أولية الشعر التي تحولت علي يد الجاحظ وصارت تحديد عُمَرُ الشعر ، فشغل بها الجاحظ كل من جاء بعده .

صحيح قد يكون الجاحظ - كما ذكر الشيخ شاكر - أراد أن يبرز ابن سلام ويثبت تفوقه عليه فهو - عند نفسه - ليس بأقل من ابن سلام علماً بالشعر وروايته ، وبخاصة أنه رأى أن ما توصل إليه ابن سلام من أراء تتصل بالشعر الجاهلي وقضاياه ستكون أساساً يستند إليها كل من يأتي بعده ، حيث إن كتابه "طبقات فحول الشعراء" هو الأول في باب ، ومؤلفه عالم باللغة والأنساب ، مشهود له بالحفظ وسعة الرواية ، وقوة الضبط والتثبت ، فأراد الجاحظ أن يثبت لنفسه ولمجموعه وللأجيال من بعده أنه ليس بأقل معرفة بالشعر الجاهلي من ابن سلام بل إنه متفوق عليه .

ونضيف إلى ما ذكره الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - من أسباب دفعت الجاحظ إلى القول بحدثة ميلاد الشعر العربي وأن مهلهل بن ربيعة وامراً القيس هما أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه فنقول :

١- الجاحظ كما يبدو من مؤلفاته كان معجباً بنفسه، مدلاً بعلمه،



وسعة ثقافته وإحاطته بمعارف عصره ، حيث لم يقف في قراءاته وإطلاعه عند حدِّ الثَّقافة العربية والإسلامية ، والعلم بلغة العرب ورواية أشعارها وأخبارها في القديم والحديث ، وإنما اتسعت قراءاته فشملت كل ما تُرجم حتى عصره من علوم وثقافات الأمم الأخرى كالهند والفرس واليونان فكان بحق موسوعي الثَّقافة . ولما لم يجد فيما تُرجم من كتب هذه الأمم شعرا ، أو ما يشير إلى أن لديها شعراء ، ووجد أن أقدم ما يروى من الشعر العربي إنما هو شعر مهلهل بن ربيعة التغلبي وابن أخته امرئ القيس بن حُجر أعلن بلسان الوثائق أن الشعر صغير السن ، حديث الميلاد ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس ومهلهل ، وهو بهذا لا يعطن - فيما نرى - عن عُمر الشعر العربي وحده وإنما عن عُمر الشعر على الإطلاق عند العرب وعند غيرهم من الأمم .

٢- استقرّ لدى الجاحظ من خلال سماعه وروايته أخبار السابقين أنهم يكادون يُجمعون على أوليّة المهلهل وامرئ القيس . فقد سبق أن أشرنا إلى أن الحديث "امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار ؛ لأنه أول من أحكم الشعر" كان من مرويات علماء الحديث المعاصرين للجاحظ ، فقد رواه هُشَيم بن بشير الواسطي (ت: ١٨٣هـ) بإسناده عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي (ت: ٥٩هـ) عن رسول الله ﷺ ، ورواه عن هُشَيم الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) ومُسَدَّد بن مسروق الأسدي (ت: ٢٢٨هـ) وعن مُسَدَّد رواه الإمام البخاري (ت: ٢٥٦هـ) وقد أشار الحافظ ابن عسكّر علي بن الحسن (ت: ٥٧١هـ) [٤٩: ٢٣٨/٩] إلى أن جماعة من معاصري الجاحظ رَووا هذا الحديث عن هُشَيم منهم الخليفة المأمون (ت: ٢١٨هـ) ، ويحيى بن معين (ت: ٢٣٣هـ) ، ومحمد بن حميد الرّازي (ت: ٢٤٨هـ) وغيرهم .

وتلميذ الجاحظ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-  
 ٢٧٦هـ) يروي أن رسول الله - ﷺ - ذكر في مجلسه امرؤ القيس  
 فقال [٥٦: ١/١٢٦]: "هو قائد الشعراء إلى النار" وهذا الحديث  
 الذي رواه ابن قتيبة مرسلًا نرجح أنه سمعه من أبي هفان المهزبي  
 عبد الله بن أحمد بن حرب (ت: ٢٥٧هـ) أو أطلع عليه في بعض  
 كتب أبي هفان فقد ذكره النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق  
 (ت: ٣٨٠هـ) فقال [٦٥: ١/١٦١]: "أبو هفان المهزبي الشاعر كان  
 إخباريًا - راوية، مصنفًا، وله من الكتب كتاب الأربعة في أخبار  
 الشعراء، وكتاب صناعة الشعر كبير رأيت بعضه". وترجم له  
 الخطيب البغدادي أحمد بن علي (ت: ٤٦٣هـ) فقال [٢٨: ٩/٣٦٠]:  
 "أبو هفان المهزبي الشاعر أحسبه من أهل البصرة سكن بغداد وكان  
 له محل كبير في الأدب، وحدث عن الأصمعي قال: حدثنا الأصمعي  
 عن ابن عون عن محمد - ابن سيرين - عن أبي هريرة قال: قال  
 رسول الله - ﷺ - : "امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار".

وينقل ابن قتيبة قول ابن الكلبي [٥٦: ١/١٢٦]: "إن رسول  
 الله - ﷺ - قال في حق امرئ القيس وقد ذكر عنده: "ذاك رجل  
 مذكور في الدنيا شريف فيها، منسي في الآخرة خامل فيها، يجيء  
 يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار". وإذا كان ابن قتيبة لم  
 يذكر سند رواية ابن الكلبي فإن الحافظ ابن عساكر ذكر  
 [٤٩: ٩/٢٢٩-٢٣٠] أن ابن الكلبي رواه عن "فروة بن سعيد - أو  
 سعيد بن فروة - بن عفيف بن معدي كرب عن أبيه عن جدّه".

وروى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (ت: ٢٣هـ) ذكر  
 امرأ القيس فقال [٥٦: ١/١٢٧]: "سابق الشعراء خسف لهم عين  
 الشعر".

والجاحظ نفسه يروي في [١٦: ٤/٨٤] أن أبا عمرو بن العلاء

(ت: ١٥٤هـ) كان يرى "أن الشعر فُتِحَ بامرئ القيس". ويروي [١٨٣/٢: ١٦] قول لبيد العلاري (ت: ٤١هـ) [٤٢: ١٧٢]:  
وَالشَّاعِرُونَ الشَّاطِئُونَ أَرَاهُمْ سَلَكُوا طَرِيقَ مُرْقَشٍ وَمُهْلَلٍ  
ولبید أحد شعراء المغلقات ، وأحد المخضرمين المعمرين الذين  
قضوا في الجاهلية ما يقارب المائة سنة ، فيقال [٢٥٧/١: ٥٦]:  
"أن وفاته كانت في أول خلافة معاوية ، وأنه مات وهو ابن مائة  
وسبع وخمسين سنة". وذكر أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين  
(ت: ٣٥٦هـ) [٤: ٢٩٢/١٥] أن لبید بن ربیعة "مات في أواخر أيام  
معاوية بن أبي سفيان ، فكلن عمره مائة وخمسا وأربعين سنة ،  
منها تسعون في الجاهلية وبقيتها في الإسلام".

ولا نشك في أن الجاحظ كان يروي شعر الفرزدق همّام بن غالب  
(ت: ١١٠هـ) وهو من فحول الشعراء في العصر الأموي ، فهو  
القائل [٥٤: ٤٩٣] "وَمُهْلَلُ الشُّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ".

٣- لم يرد الجاحظ وهو من أعلام عصره المشهود لهم بسعة  
العلم ورواية الأشعار والأخبار قديمها وحديثها أن يتخلف عن  
مشاركة معاصريه في الجدل الدائر حول الشعر الجاهلي ، فقد كانت  
قضية أولية الشعر وما يتصل بها من مسائل مثل : من أول من قصد  
القصيد ؟. ومتى كان ذلك قبل الإسلام ؟. من القضايا التي شغلت  
العلماء والقبائل في عصر الجاحظ .

يقول عمر بن شبة (ت: ٢٦٢هـ) [٣٧: ٤٧٧/٢]: "للشعر والشعراء  
أول لا يؤقف عليه ، وقد اختلف في ذلك العلماء وادّعت القبائل كل  
قبيلة لشاعرها أنه الأول ، فادّعت اليمانية لامرئ القيس ، وبنو أسد  
لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمر بن قميئة والمرقش  
الأكبر ، وإياد لأبي ذؤاد . وزعم بعضهم أن الأقوه الأودي أقدم من  
هؤلاء وأنه أول من قصد القصيد. وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في  
الشعر متقاربون، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها".

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢١٠هـ) يقول [٣١: ٩٠/١]: "افتتح الشعر بامرئ القيس"، وأبو عبيدة ممن سمع منهم الجاحظ، وكذلك الأصمعي عبد الملك بن قريب (١٢٢-٢١٦هـ) - وهو ممن أخذ عنهم الجاحظ - كان يرى أن امرأ القيس أول الفحول ورأس الشعراء وأستاذهم، يقول أبو حاتم السجستاني (١٦٥-٢٥٥هـ) [٢٩: ٣٤]: "سألت الأصمعي قبيل موته: مَنْ أول الفحول؟ قال: النابغة الذبياني، فلما رأيته أكتب كلامه، ففكر ثم قال: بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه".

وعن المهلهل يقول ابن الأعرابي محمد بن زياد (١٥٠-٢٣١هـ) [٥٩: ١٠٦]: "وإنما سُمي مهلهلاً لأنه قول من رفق الشعر، وتجنب الغريب الوحشي".

ويروي أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠-٢٩١هـ) قول الأصمعي [١٤: ٤١١/٢]: "أول من تروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة رجل من بني كنانة، والأضبط ابن قريع... وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمئة سنة. وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير".

ويقول محمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣١هـ) [٢١: ١١/١]: "ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً"، ويقول [٢١: ٤٠/١-٤١]: "وكان شعراء الجاهلية في ربيعة أولهم المهلهل... وكان امرؤ القيس بن حُجْر بعد مهلهل، ومهلهل خاله". ويَعَدُّ المهلهل [٢١: ١/٣٩] أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب وائل، قتلته بنو شيبان". ويحدّد زمن تقصيد القصائد فيقول [٢١: ٢٦/١]: "وإنما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف".

وفي حقّ امرئ القيس يقول ابن سلام [٢١ : ٥٥/١] : " سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء " .

هذه هي الأقوال والأخبار التي تمكنا من جمعها ، وقدرنا على الاطلاع عليها ، وكلها أقوال وأخبار تثبت لمهلهل بن ربيعة وامرئ القيس بن حُجر أوليّة في الشعر ، ولا نشك في أنها كلها أو معظمها كانت بين يدي الجاحظ وفي عقله وذهنه ووعيه وهو يكتب عن الشعر محددا عمره بمائة وخمسين سنة قبل الإسلام أو بمائتي عام بغاية الاستظهار كما ورد في كلامه . ومعنا - مدفوعا بهذه الأقوال وبما رواه من الشعر الجاهلي - أن مهلهلا وامراً القيس هما أول من نهج سبيل الشعر ، وسهل الطريق إليه .

وقد آثرنا فيما اخترناه من أقوال وأخبار أن تكون من أقوال السابقين على الجاحظ أو المعاصرين له الذين التقاهم وسمع منهم أو اطلع على كتبهم بل إن بعضها قد ورد في كتب الجاحظ نفسه لنبيين أن دوافع الجاحظ التي دفعته إلى هذا القول كانت ثابتة في ذهنه ووعيه وأنه لم يقل بهذا القول جزافاً من عند نفسه ، وإنما قال به استناداً على ما رواه من أقوال وأخبار ، وعلى ما كان يدور في عصره من جدل واختلاف بين العلماء في أوليّة الشعر والشعراء وتحديد زمن أقدمهم قبل الإسلام ، ولذا فإننا لا نوافق المرحوم انشيخ محمود شاكر في حصر دوافع الجاحظ في الحديث الذي رواه هشيم وابن الكلبي ، أو فيما قال به ابن سلام الجمحي عن أوليّة المهلهل في تقصيد القصائد .

إن الجاحظ حين صاغ دعوى حداثة ميلاد الشعر العربي وصغر سنّه ، وأن عمره لا يزيد عن مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام وأن مهلهلا وامراً القيس هما أول من نسج سبيله وسهل الطريق إليه كان

ناظرا إلى ما ذكرناه من أقوال وأخبار تثبت لامرئ القيس ومهلل أوليَّة في الشعر وسبقاً على الشعراء ، كما كان مدفوعاً بهذا الجدل الدائر بين علماء عصره واختلافهم في تحديد زمن مهلل وامرئ القيس حيث قال بعضهم إنه أربع مائة سنة قبل الإسلام ، والبعض الآخر حدد زمن أقدم الشعراء بمائة سنة قبل الهجرة أو نحوها .

لقد أراد الجاحظ ألا يتخلف عن المشاركة في هذا الجدل الدائر بين علماء عصره حول أوليَّة الشعر والشعراء فأدلى بدلوه في هذه القضية رغبة منه في حسم هذا الخلاف الدائر بين العلماء — وأسعفته ثقافته الواسعة وروايته أشعار العرب وأخبارها ، وإطلاعه على ما ترجم من ثقافات الأمم الأخرى حيث لم يجد فيما ترجم من كتبها إشارة إلى أن لديها شعراً وفيها شعراء ، ووجد فيما يرويه من شعر امرئ القيس ذكراً لرجال مشهورين يمكن بحساب أعمارهم حسم الخلاف في عُمر الشعر ، فصاغ دعواه وأيدها بما رآه من أدلة تقوي ما ذهب إليه وأثبتها في كتاب "الحيوان" ملقياً بها إلقاء الوثائق بصحتها ، إدلالاً بعلمه وسعة ثقافته .

#### مناقشة الدوافع والأسباب :

بالتأمل في هذه الأقوال والأخبار التي دفعت الجاحظ إلى القول بما قال عن عُمر الشعر العربي وأوليَّة امرئ القيس ومهلل نرى أنها لا يمكن أن يفهم منها مثل ما فهمه الجاحظ ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتخذ أساساً يبنى عليه مثل رأيه .

إن أوليَّة المهلل بن ربيعة التي قال بها العلماء تعني أنه من أقدم الشعراء الذين روى لهم الرواة حتى عصر الجاحظ جملة صالحة من القصائد والأشعار . فالأوليَّة هنا أوليَّة في الزمن بالنسبة لغيره من الشعراء المعروفين ولا تعني أنه أول من قال الشعر أو نهج سبيله وسهل الطريق إليه كما ادَّعى الجاحظ ، كما لا تعني أنه أول من قصد القصيد كما قال ابن سلام .

ومن يتأمل قول لبيد بن ربيعة : "والشَّاعِرُونَ النَّاطِقُونَ ... البيت" يجده لا يُفرد المهلهل بالأولوية والقِدَم وإنما أشرك معه المرقش الأكبر وهو معاصر للمهلهل ، وأحد فرسان بكر الذين حاربوا المهلهل بسلاحهم ولسانهم في حرب البسوس تلك الحرب التي أجاج نارها وأشعل جذوتها المهلهل بن ربيعة أخذاً بثأر أخيه كليب .

وأما قول الفرزدق : "وَمَهْلَهُ الشُّعْرَاءُ ذَاكَ الْأَوَّلُ" ، لا يعني أن مهلهلاً أول من قال الشعر وإنما يعني أنه أقدم وأول من يروى له شعر في هجاء أعدائه وتهديدهم وتوعدهم بالهلاك والفناء ، فقول الفرزدق : "وَمَهْلَهُ الشُّعْرَاءُ ذَاكَ الْأَوَّلُ" جاء في سياق يُعَدِّد فيه فحول الشعراء الذين تأثر بهم وحذا حذوهم في الهجاء ، وشهد لهم العرب بقوة العارضة وجودة الشعر والقدرة على إسكات خصومهم ، وإفحام منافسيهم بما يصبونه عليهم من هجاء يقذفونهم به قذف الصخر ، ويطعنونهم به الطعنات القاتلة ، ويرشقونهم به رشق النبل في غلس الليل ، أو يسوقونه إليهم وخزا كوخز الإبر ، فلا يطمئن لهم مضجع ، ولا يقر لهم قرار . يقول الفرزدق [٥٤ : ٤٩٣] :

وَهَبِ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغِ إِذْ مَضُوا أَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرُولُ<sup>(١)</sup>

(١) النوابع: هم الشعراء الذين لقب كل واحد منهم بالنابغة . وأشهرهم ثلاثة: النابغة الذبياني والنابغة الجعدي والنابغة الحارثي، وغير هؤلاء الثلاثة يوجد: النابغة الغنوي، ونابغة بني قتال ، والنابغة التغلبي. وهناك نابغتان لا يقصدهما الفرزدق وهما: النابغة الشيباني، والنابغة اليربوعي فقد كانا معاصرين له وبينه وبينهما مهاجاة ، ولذا قيّد الفرزدق النوابع بالماضين . ينظر : المؤلف والمختلف للآمدي: ١٩١-١٩٢ ، وأخبار النوابع للسندوبي: ٤١١-٤٦٥ . أبويزيد : المخبيل السعدي . ذو القروح : امرؤ القيس بن جُر. جرول : الحطيئة .

وَالْفَحْلُ عَلْقَمَةُ الَّذِي كَانَتْ لَهُ  
وَأَخُو بَنِي قَيْسٍ وَهَنْ قَتْلُهُ  
وَالْأَعَشْيَانُ كَلَامُهُا وَمَرْقَشُ  
وَأَخُو بَنِي أَسَدٍ عَبِيدٌ إِذْ مَضَى  
وَابْنُ أَبِي سَلْمَى زَهِيرٌ وَابْنُهُ  
وَالْجَعْفَرِيُّ وَكَانَ بَشَرٌ قَبْلَهُ  
وَلَقَدْ وَرِثَتْ لَالِ أَوْسٍ مَنَظْمًا  
وَالْحَارِثِيُّ أَخُو الْحِمَاسِ وَرِثَتْهُ  
يَصْدَعُنْ ضَاحِيَةَ الصَّفَا عَنْ مَتْنِهَا  
دَقُّوا إِلَيَّ كِتَابَهُنَّ وَصِيَّةً

حَلَّلَ الْمَلُوكَ كَلَامُهُ لَا يُنْخَلُ<sup>(١)</sup>  
وَمَهْلُ هَلِ الشُّعْرَاءُ ذَاكَ الْأَوَّلُ<sup>(٢)</sup>  
وَأَخُو قَضَاعَةَ قَوْلُهُ يَتَمَثَّلُ<sup>(٣)</sup>  
وَأَبُو دُوَادٍ قَوْلُهُ يَتَنَجَّلُ<sup>(٤)</sup>  
وَابْنُ الْفَرِيعَةِ حِينَ جَدَّ الْقَوْلُ<sup>(٥)</sup>  
لِي مِنْ قَصَائِدِهِ الْكِتَابُ الْمُجْمَلُ<sup>(٦)</sup>  
كَاسْتَمَّ خَاطِبُ جَانِبِيهِ الْحَنْظَلُ<sup>(٧)</sup>  
صَدْعًا كَمَا صَدَعُ الصَّفَا الْمَقُولُ<sup>(٨)</sup>  
وَتَهَنَّ مِنْ جِبَالِي عَمَائَةَ أَثْمَلُ  
فَوَرِثَهُنَّ كَمَا تَهَنَّ الْجَنْدَلُ

فالفرزدق في هذه الأبيات يفتخر بشاعريته الأصلية ، وطبعة  
المتمكن ، ويدل على جرير بخبرته العميقة بطرق الهجاء وأساليبه ،  
فقد ورث ذلك عن هؤلاء الفحول المبرزين المشهود لهم بجودة  
الشعر ، وحذق الهجاء ، والتفنن في أساليبه وطرقه ، فليس منهم

- (١) الفحل علقة : هو علقمة بن عبدة التميمي ويلقب بعلقمة الفحل .  
لا يُنخل : لا سقط فيه .
- (٢) أخو بني قيس : طرفة بن العبد . مهلهل الشعراء : مهلهل بن  
ربيعة التغلبي .
- (٣) الأعشيان : الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، وأعشى بني نهشل  
الأسود بن يعفر . مرقش : المرقش الأكبر . أخو قضاعة : أبو  
الطمحان القيني .
- (٤) أخو بني أسد : عبيد بن الأبرص الأسدي . أبو دؤاد : جارية بن  
الحجاج الأيادي المعروف بأبي دؤاد .
- (٥) ابنا أبي سلمى : زهير بن أبي سلمى وابنه كعب بن زهير . ابن  
الفرية : حسان بن ثابت ؓ .
- (٦) الجعفري : لبيد بن ربيعة العامري . بشر : هو بشر بن أبي  
خازم الأسدي .
- (٧) أوس : أوس بن حجر التميمي . وآل أوس : يقصد شريح بن  
أوس وشعراء بني تميم ، وأوس كان فحل مضر في الجاهلية .
- (٨) الحارثي أخو الحماس : هو النجاشي الحارثي .



شاعر إلا وقد نافح عن قومه ، وهجا أعداءه فأذلهم بما وسمهم به من سيما الخزي والهوان ، وبما ألحق بهم من العار والشنار ، ولذا توجه الفرزدق - عقب هذه الأبيات - إلى جرير مفتخرا ومهددا فقال: **إِلَيَّ ارْتَفَعْتَ عَلَيْكَ كُلُّ ثَنِيَّةٍ وَعَلَوْتَ فَوْقَ بَنِي كَلْبٍ مِنْ عَمَلٍ** إن قول الفرزدق : " وَمَهْلَهْلُ الشُّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ " لا يعني - كما ذهب الجاحظ - أنه أول من قال الشعر ونهج سبيله ، وإنما يعني أنه أولهم شهرة وذيوع صيت ، وأوليته في قول الشعر ليست أولية مطلقة وإنما هي أولية نسبية ؛ لأن الفرزدق ذكر في هذه الأبيات مَنْ هُمْ أقدم من مهلهل زمنا كأبي دؤاد الإيادي الَّذِي كان - كما يقول الرواة - [٣٧٥/١٦ : ٤] : " على خيل المنذر بن النعمان " والمنذر كما أثبت المؤرخون [٥٨٥ : ٦٤] حكم الحيرة بعد أبيه بين سنتي (٤١٨-٤٦٢م) . ولهذا كان أبو دؤاد من نعات الخيل المجيدين في الجاهلية وبه تأثر من جاء بعده من الشعراء ومنهم امرؤ القيس بن حُجْر كما ذكر ابن رشيقي [٣١ : ١٩٨/١] . وقد ألمح إلي هذا الفرزدق فقال : " وَأَبُو دُؤَادٍ قَوْلُهُ يُتَنَحَّلُ " ، أي ينتحله الشعراء متأثرين بجودته وبراعته في وصف الخيل وحسن نعته إياها . قال ابن الأعرابي [٣٧٥/١٦ : ٤] : " لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد " .

ومما يدل على قَدَمِ أَبِي دُؤَادِ الإيادي وأنه أسبق من مهلهل وامرئ القيس بزمان طويل قول الشاعر الأموي سراقبة بن مرداس البارقي (ت: ٧٩هـ) وهو من معاصري الفرزدق وجرير ، فقد افتخر سراقبة بشعره الَّذِي فاق - بزعمه - شعر أوائل الشعراء كمهلهل وامرئ القيس ، وأبي دؤاد ، فقال [٧١-٧٤] :

وَلَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الْقَرِيضِ طَرِيقَةً	أَعْيَتْ مَصَادِرُهَا قَرِينَ مَهْلَهْلٍ
بَعْدَ امْرِئِ الْقَيْسِ الْمَثْوَى بِاسْمِهِ	أَيَّامَ يَهْدِي بِاللَّخُولِ فَجْوَ مَلٍ
وَأَبُو دُؤَادٍ كَانَ شَاعِرَ أُمَّةٍ	أَفَلَتْ نَجْوَاهُمْ وَلَمَّا يَأْفَلِ

فالببيت الثالث من هذه الأبيات يؤكد على قدم أبي دؤاد وأنه أقدم من مهلهل وامرئ القيس ، فلو كان أبو دؤاد من معاصري مهلهل ل ما وصفه سرافة بأنه كان شاعر أمة أفلت نجومها ، وهذه الأمة هي الجاهلية السابقة على مهلهل وامرئ القيس ، وهذا يبطل قول من ذهب إلى أن أبادؤاد كان في زمن المنذر بن ماء السماء [٤ : ٣٧٧/١٦ - ٣٨٠]؛ لأن المنذر كان في زمن مهلهل وامرئ القيس .

وأيضاً ذكر الفرزدق من معاصري مهلهل عبيد بن الأبرص والمرقش الأكبر ، ولكن المهلهل أولهم شهرة وذيوع صيت ، فقد طوَّف شعره في الآفاق ، وسارت به الركببان ، وأنشدته العرب في محافلها ، وسمرت به في مجالسها وأنديتها ؛ لأنه يحكي أحداث حرب البسوس التي شغلت العرب - كما يقول الرواة - أربعين عاماً ، ويسجل انتصارات تغلب على بكر ، ويصور فروسية المهلهل وبطولته ، وتهديده بكرًا وتوعدها بالإهلاك والإفناء .

وقد ساعدت خطورة الموضوع ، وجسامة الأحداث ، وصدق عاطفة المهلهل وحرارة مشاعره ، وسهولة شعره ورقة أسلوبه في شهرته بين شعراء زمنه . وهذه الرقة والسهولة التي امتاز بها شعر المهلهل جعلت ابن الأعرابي (ت : ٢٣١هـ) المعاصر للجاحظ يقول [٥٩ : ١٠٦] : "إنما سُمِّي مهلهلاً لأنه أول من رَفَّق الشعر ، وتجنب الغريب الوحشي". وهذا القول من ابن الأعرابي العالم باللغة والرواية الثقة ربيب المفضل الضبي (ت : ١٧٨هـ) ووارث علمه بالشعر لا يمكن أن يصدر عنه إلا بعد موازنة دقيقة بين شعر مهلهل وشعر معاصريه وسابقيه . إن هذا القول من ابن الأعرابي يفيد أن مهلهلاً كان مسبوقة بشعراء اتسم شعرهم بغرابة الألفاظ وخشونة الأساليب ووعورة التراكيب فجاء المهلهل فرَفَّق الشعر وسهّل أسلوبه.

ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن المهلهل مسبق بكثير من الشعراء ما رواد أبو العباس تغلب (٢٠٠-٢٩١هـ) [١٤: ٤١١/٢] قال الأصمعي: " أول من تروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع " .

وإذا تأملنا قول الأصمعي نجده لا يقطع بأن المهلهل بن ربيعة التغلبي هو أول من قصّد القصائد وطوّل الشعر كما زعم ابن سلام الجمحي ، ولا يفيد أنه أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه كما ادعي الجاحظ ؛ لأن الأصمعي وهو أستاذ الجاحظ وابن سلام لم يجعل تطويل الشعر وفقاً على مهلهل بن ربيعة وإنما أشرك معه شعراء آخرين إذا تأملنا عمود أنسابهم في كتب التراجم والأنساب نجدهم أسبق من مهلهل بن ربيعة بزمان طويل .

فذؤيب : هو : ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . [٣٠: ٢٠١] ، [٦٣: ٤٨٣] ، [٤٤: ١١٩] .

وضمرة : هو : ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . [٣٠: ١٧٠] ، [٢٤: ١٨٠] .

والأضبط : هو : الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . [٥٦: ٣٨٢/١] ، [٣٠: ٢٥٥] ، [٦٣: ٣٦] ، [٣٣: ٣٣٤/١] .

وأما مهلهل : فهو : عديّ - وقيل امرؤ القيس - بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعْمَي بن جديلة بن

أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . [ ٣٠ : ٣٣٨ ] ،  
[ ٢٤ : ٣٠٥ ] ، [ ١ : ١١ ] .

فهم جميعا مشتركون في "نزار بن معد بن عدنان" وأقدمهم جميعا "ضمرة الكناني" بينه وبين نزار (٧) سبعة آباء . ويليه "ذؤيب بن كعب" بينه وبين نزار (٨) ثمانية آباء . وقد يكون ضمرة وذؤيب متعاصرين . أما الأضبط بن قريع فبينه وبين نزار (١١) أحد عشر أبا، وبين مهلهل وبين نزار (١٧) سبعة عشر أبا .

وهذا يدل على أن مهلهلا متأخر عنهم بزمان طويل ، ومن ثم لا يخذعنا بدء الأصمعي به وعطف الشعراء الآخرين عليه بحرف العطف "ثم" التي تفيد الترتيب والتراخي . فالبدء به لا يعني أنه أقدمهم لأنه قد يكون ناشئا عن سؤال وجه إلى الأصمعي بشأن تطويل الشعر وتقصيده على يد مهلهل فأجاب بأنه أول من تروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر ، ثم فكر وراجع نفسه فرأى أن هناك من هم أسبق منه زما فقال : ثم ذؤيب بن كعب ثم ضمرة ، والأضبط بن قريع . وهم كما بيتا على هذا النحو من الترتيب الزمني . وعلى هذا فإن كلمة " أول" التي في صدر كلام الأصمعي لا تفيد ترتيب زمان هؤلاء الشعراء ، وإنما تعني أول من روى له الأصمعي قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر مهلهل ثم ذؤيب بن كعب ثم ضمرة ثم الأضبط بن قريع . فالأصمعي يرتب زمان روايته القصائد التي تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر ، ولا يرتب زمان أصحابها .

وأما أولية امرئ القيس فإن المتأمل في الأقوال والأخبار التي تثبت أوليته وتعدّه أول الفحول ورأس الشعراء وسابقهم وقائدهم وصاحب لوائهم يجدها تثبت له أولية فنية لا أولية قول الشعر بمعنى أن شعره يمتاز على شعر من سبقه أو عاصره بالجودة الفنية ، فهو في رأي أصحاب هذه الأقوال أول من أحكم الشعر وجود القوافي

مبنى ومعنى ، وأحكم التشبيه واخترع كثيرا من الصور فتأثر به الشعراء ، ونسجوا على منواله ، واحتذوا مذهبه الفني ، واستوحوا كثيرا من معانيه وصوره .

ومع تسليمنا بكل ذلك فإننا نعدّ أوليّة امرئ القيس الفنية ليست أوليّة مطلقة وإنما هي أوليّة نسبية بحسب ما ورد إلينا من صحيح الشعر الجاهلي ، فقد ضاع معظم الشعر الجاهلي الذي قيل قبل مهلهل وأمرئ القيس ولم يصلنا منه إلا أقل القليل ، وهذا لا يسوّغ للجاحظ ولا غيره أن يؤرخ لميلاد الشعر العربي معلنا حداثة مولده وصغر سنّه ، ومحددا بدايته بالمهلهل بن ربيعة التغلبي وابن أخته امرئ القيس بن حُجر .

إننا إذا تأملنا متن الحديث الذي يثبت لامرئ القيس قيادة الشعراء وحمل لوائهم إلى النار نجده لا يدل على أنه أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه ، ولا يوحى بصغر سن الشعر وحداثة مولده كما ادعى الجاحظ ، فكون امرئ القيس - إن صحّ الحديث وهو غير صحيح - صاحب لواء الشعراء إلى النار فذلك لأنه كما هو الثابت من شعره كان يصرح بالزنا ، ويفتخر بارتكاب الفواحش ، ويدبّ إلى حرّم الناس ويتباهى به ولا يستتر ، حتى شهر نفسه وفضحها بذلك وهي أمور تابها النفس ، وترفضها الأخلاق ، ومسلك لا يرضى عنه العرب الذين هم أهل إباء وأصحاب غيرة ومحافظّة على الأعراض والحرّات ، أما الشعراء غيره - كما قال ابن قتيبة [٥٦ : ١٣٥/١] : "فقد كانت تتوقّى ذلك في الشعر وإن فعلته" .

إن امرأ القيس بتعهره في شعره فتح باب الغزل المكشوف لغيره من الشعراء الذين أتوا بعده فاستحق بذلك أن يكون صاحب لواء الشعراء إلى النار يوم القيامة ، وليس لأنه أول من أحكم الشعر كما

جاء في رواية البخاري . وكونه أول من أحكم الشعر لا يعني أنه أول من قاله ولا يسوغ أن يتخذ شعره دليلاً على التأريخ لعمر الشعر العربي وتحديد سنه كما فعل الجاحظ ، وإنما يعني أن شعره من أقدم ما وصلنا من الشعر الجاهلي متسماً بسمات النضج والإحكام الفني لاحتوائه على معانٍ لطيفة وصور بديعة مع حلاوة الكلام وطلاوته ، والبعد عن سخف الأسلوب وركاكته ، ومجانبة الغريب والوحشي من الألفاظ والتراكيب .

إن الحديث " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار ؛ لأنه أول من أحكم الشعر " حديث غير صحيح لأن علماء الحديث وأئمة الجرح والتعديل قد عدّوه من الأحاديث المنكرة ، والأخبار الباطلة التي لا تصح عن رسول الله - ﷺ - فإسناده عندهم من الأسانيد الواهية الضعيفة جداً لوروده عن رجال لا يصح الاحتجاج بأخبارهم لكونهم مجهولين ، أو لأنهم غير ثقات ، أو لأنهم يروون عن الثقات ما ليس من مروياتهم .

فالأصمعي (ت : ٢١٦هـ) ثقة فيما يرويه من اللغة والشعر والنوادر والأخبار، وشهرته في رواية الحديث الشريف والثقة فيما يرويه منه لا تقل عن شهرته والثقة به في علوم اللغة والأدب ، فقد لازم من أئمة الحديث شعبة بن الحجاج (ت : ١٦٠هـ) وسفيان بن عيينة (ت : ١٩٨هـ) وروى عنهما . وعن الأصمعي نفسه سمع الحديث رجال أفذاذ كالإمام مالك بن أنس (ت : ١٧٩هـ) ، وأخذه عنه رجال صاروا فيه أفذاذاً من أمثال الإمام أحمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ) ، ويحيى بن معين (ت : ٢٣٣هـ) ، وغيرهما ممن كانت تحفل بهم حلقة الأصمعي من طلاب العلم ، وكلهم أثنى عليه ووثقه ، فقد سئل عنه أبو داود الطيالسي (ت : ٢٠٤هـ) فقال : صدوق . [٢٨ : ١٠ / ٤١٠ - ٤١٩] .

فلو كان الحديث "امروء القيس قائد الشعراء إلى النار" من مرويات الأصمعي لجاءنا عنه من طرق أخرى غير طريق أبي هفان المهزومي (ت: ٢٥٧هـ) ، إذ ليس من المعقول أن يكون الأصمعي قد أثر به أبا هفان وحده دون سائر تلاميذه ، ثم إن الأصمعي لم يُشر إلى هذا الحديث في إجاباته على سوالات أبي حاتم السجستاني (ت: ٢٥٥هـ) عن فحول الشعراء . وامروء القيس عند الأصمعي أول الفحول ورأس الشعراء وأستاذهم . ولهذا أنكر علماء الحديث رواية أبي هفان عن الأصمعي ، وعدّوه خبراً من الأخبار الباطلة المنكرة . [٥٦ : ١٢٧/١] ، [٢٧ : ٥٣١/٦] .

وأبو الجهم الواسطي مجهول لا يُعرف مَنْ هو ، ولا يُوثّق خبره كون هُشَيْم بن بشير (ت: ١٨٣هـ) رواه عنه ، فهُشَيْم وإن كان ثقة مرضياً ومن أهل الورع في الدين إلا أنه كما ذكر محمد بن حبان (ت: ٣٥٤هـ) [٢٢ : ٩٢/١] : "كان ممن يكتبون عن الكل ، ويروون عن سمعوا منه ، وربما كان ضعيفاً أو كذاباً لا يجوز الاحتجاج بخبره" . والقاعدة عند علماء الجرح والتعديل أنه "لا يجوز الاحتجاج بخبر في روايته كنية إنسان لا يُدرى من هو ؛ لأنه يُحتمل أن يكون كذاباً كنى عن ذكره" . [٢٢ : ٩١/١] .

وأما فروة بن سعيد أو سعيد بن فروة الذي روى عنه ابن الكلبي فهو رجل مجهول لا يعرفه علماء الحديث ، ولم يترجم له ولا لأبيه أحد منهم [٦٧ : ١١٩/٨] ، ثم إن ابن الكلبي نفسه لم يوثقه معاصروه من علماء الحديث وعدّوه غير ثقة وممن لا يجوز أخذ الحديث عنه . فقد قال عنه يحيى بن معين (١٥٨-٢٣٣هـ) [٢٨ : ٤٥/١٤] إنه "غير ثقة ، وليس عن مثله يُروى الحديث" . وقال الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) [٢٨ : ٤٦/١٤] : "هشام ابن محمد بن السائب الكلبي من يُحدّث عنه ؟ . إنما هو صاحب نسب

وسمر ، ما ظننت أن أحدا يحدث عنه .

وقد جاء في بعض الروايات [٤٩ : ٢٣٨/٩] أن ابن الكلبي روى هذا الحديث عن أبيه محمد بن السائب الكلبي (ت : ١٤٦هـ) وهو أيضاً مجروح عند معاصريه من علماء الحديث كسفيان الثوري (ت : ١٦١هـ) وغيره ، فقد قالوا في حقه : "إنه ليس بشيء" ، وغير ثقة وكذاب" [٢٢ : ٢٥٣/٢ - ٢٥٦] .

لقد ورد هذا الحديث المنسوب إلى الرسول - ﷺ - في ثنايا خبر يرويه ابن الكلبي [٥٦ : ١٢٦/١] عن وفد من أهل اليمن كانوا قاصدين النبي - ﷺ - في المدينة ولكنهم ضلوا الطريق ووقعوا على غير ماء حتى أشرفوا على الهلاك، وبقوا على هذه الحال ثلاثة أيام، فأقبل عليهم راكب على بعير فأتشد بعضهم بيتين من شعر امرئ القيس فيهما اسم "ضارج" :

وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ هَهُنَا      وَأَنَّ الْبَيَاضَ مِنْ فَرَائِصِهَا دَامِي<sup>(١)</sup>  
تَيَمَّمتِ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِجٍ      يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرْمَضَهَا طَامِي

فقال الرّكّاب : من يقول هذا الشعر ؟ فقالوا : امرؤ القيس قال : والله ما كذب هذا ضارج عندكم وأشار لهم إليه ، فأتوه فشربوا وارتووا حتى بلغوا المدينة فأخبروا النبي - ﷺ - خبرهم وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرئ القيس فقال النبي - ﷺ - : ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار" .

والمتمل في هذا الخبر يجده مشتملا على دليل وضعه ، وأمرة كذبه ، وعدم صحته ، فقد جاء فيه :

١- أن هذا الرّكّاب اليمني ضل الطريق ووقعوا على غير ماء ، وليس من المعقول أن يضل ركّاب عربي طريقه ، وهم أبناء الصحراء

(١) ينظر : ديوان امرئ القيس ص (٢٢٨) بتحقيق السندوبي .



فوقها نشأوا ، وعلى أديمها درجوا ، ثم إن الطريق من اليمن إلى المدينة من أقدم طرق القوافل ، فهو طريق قديم محدّدة رسومه ومعالمه ، ومعروفة منازلها ومواقع الماء فيه .

٢- مكث القوم ثلاثة أيام بغير ماء حتى أشرفوا على الهلاك ، والماء منهم قريب ، ألم يمرّ بهم حيوان أو يقع قريبا منهم طائر فيستدلون به على موقع الماء ؟. إذ من المعروف أن الحيوانات والطيور تحوم دائما حول مواقع المياه من أجل الرعي والسقيا .

٣- من أي قبائل اليمن هذا الركب ؟. ومن هو هذا الركب المجهول الذي أشار إلى "ضارج" فاستدلوا بإشارته على عين الماء ؟. ومن أي القبائل هو ؟. أليس من حقّه عليهم وقد أنقذ حياتهم أن يسألوه عن اسمه ويعرفوا نسبه ليحفظوا له ولقومه هذه المكرمة منوهين بها .

٤- خبر الركب اليمني الذي رواه ابن الكلبي لم يرد له ذكر عند علماء السيرة النبوية ولا عند علماء الحديث الشريف وهم أخبر الناس بما حدث من أحداث في عهد رسول - ﷺ - ، وإنما ورد ذكره في كتب الأدب والتاريخ والأخبار ، فلو كان لهذا الخبر أصل لما غفل عنه علماء السيرة والحديث .

٥- ليس في طريق القادم من اليمن إلى المدينة المنورة مكان ولا ماء يُسمّى "ضارج" فلم يرد له ذكر في شعر شعراء القبائل التي مساكنها بين اليمن والحجاز ، ومن قال إن "ضارجا" ماء في طريق القادم من اليمن إلى المدينة إنما اعتمد في ذلك على ما جاء في شعر امرئ القيس مقترنا بخبر الركب اليمني وهو خبر زائف كما بيّنا .

والصواب أن "ضارجا" ماء لبني عبس يقع في نجد في القسم الشمالي من جزيرة العرب في المنطقة التي تسمى الآن "منطقة القصيم" فهو إذن في الطريق بين العراق والحجاز ، وليس في طريق

اليمن إلى الحجاز ، ذكر ذلك القدماء والمعاصرون من العلماء الذين غنوا بذكر الأماكن وتحديد المواضع وأماكن المياه في بلاد العرب ، وأيدوا أقوالهم بما قاله شعراء القبائل التي سكنت نجدا كعبس وذبيان وأسد وبعض بطون بني حنظلة من تميم .

فللشيخ محمد ناصر العبودي - حفظه الله - وهو جغرافي معاصر من أهل نجد كتاب نفيس اسمه "معجم بلاد القصيم" استوفى فيه الحديث عن "ضارج" [٤٦ : ٤/١٣٨٢ - ١٤٢٠] ، حيث بين حدوده وموقعه مشيراً إلى أنه يُسمّى الآن "ضاري" إتباعاً للهِجَة بني تميم ، والذي يهمنّا من كلامه هو أن "ضارجاً" في نجد وليس في اليمن ، وأنه في الجاهلية والإسلام كان ماءً لبني عبس ، وكانت تسكنه بنو الصيّداء من تميم ، وبنو السبيع فخذ من حنظلة من تميم ، وأيد - حفظه الله - أقواله بما ورد في شعر شعراء عبس وذبيان وتميم ، مستشهداً بشعر الأسود بن يعفر التميمي، والحطيئة العبسي ، والحسين بن الحمام المري الذبياني ، وبشر بن أبي خازم وعمرو بن شأس الأسديان .

ولا حجة لمن يعترض قائلاً : إن ضارجاً في طريق اليمن لأنه ورد في شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن المشهور (ت: ٢١هـ) حيث قال [٣٢ : ١٨٤] :

فَرَوَى "ضَارِجًا" فَنَوَاتٍ حَنِيمٍ فَحَرَّةٌ قَالِدَا فَعٍ مِّنْ قَتَّانٍ  
لأن عمراً إنما يصف مطراً شاهده في نجد "منطقة القصيم الآن" وهو ذاهب إلى العراق في المدد الذي أمده به عمر بن الخطاب - عليه السلام - جيش المسلمين هناك ، يؤكد هذا أن الأماكن التي ذكرها مع "ضارج" وهي "نوات خيم" و"حزة" و"قنان" من الأماكن الموجودة قريباً من ضارج في بلاد نجد .

وأيضاً لا حجة لمن يستدلّ بقول امرئ القيس اليماني الأصل حيث ورد اسم "ضارج" في معلقته فقال [٥٧ : ١٧٨] :

أَصَاحَ تَرَى بِرَقًا أَرِيكَ وَمِيْضَهُ  
قَعْدَتَا وَأَصْحَابِي لَهُ بَيْنَ "ضَارِج"  
عَلَا قَطْعًا بِالسَّيْمِ أَيْمَنَ صَوْبِهِ  
كَأَنَّ مَكَائِي الْجَوَاءِ غُدِيَّةً  
وَمَرَّ عَلَى الْقَتَانِ مِنْ تَقْيَانِهِ  
كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانَيْنِ وَدَقِيهِ  
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِي الْمَجِيمِرِ غُدُوَّةً

كَلِمَعِ الْيَدَيْنِ فِي حَيْثِي مَكْلَلِ  
وَبَيْنَ الْعَذِيبِ بَعْدَ مَا مَنَامَلِ  
وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ قَبْذِلِ  
صَبِيحَنَ سُلَاحًا مِنْ رَحِيْقٍ مُقْلَلِ  
فَأَنْزَلَ مِنْهُ الْعُصَمَ مِنْ كُلِّ مَوْنِلِ  
كَبِيرٍ أَنْوَاسٍ فِي بَجَادٍ مُرَمَّلِ  
مِنَ السَّيْلِ وَالْعَنَاءِ فَلَكَّةُ مَغْرَلِ

لأنه ليس من الغريب على امرئ القيس وهو يمانى أن يذكر "ضارجا" الموجود في بلاد نجد ، فقد تربى ونشأ في نجد حيث كان أبوه حُجْر بن الحارث ملكا على قبائل أسد وغطفان وهم من أكثر قبائل نجد عددا ، وكانت مساكنهم تحتل وسط نجد حتى حدوده الشمالية باستثناء المناطق الشمالية الغربية فقد كانت تسكنها قبيلة طيء ، ثم إن الأماكن التي وردت في أبيات امرئ القيس وهي "العذيب - قطن - الستار - يذبل - الجواء - القنان - أبان - المجيمر" كلها تقع في نجد ، وهي أماكن لهوه في شبابه وفتوته .

مما تقدّم يتضح لنا أن خبر الركب اليماني وما اشتمل عليه من حديث منسوب إلى رسول الله - ﷺ - إنما هو خبر مصنوع لا أصل له ، صنعه ابن الكلبي ليسمر به في مجالسه ، أو صنعه من روى عنه ابن الكلبي ، وبخاصة إذا علمنا أن ابن الكلبي أسنده إلى فروة بن سعيد بن عفيف الكندي ، فقد أسنده إلى رجل مجهول رواه عن أبيه المجهول عن جدّه عفيف الكندي ، ومن سياقة هذا النسب نعرف أن هذا الراوي من كندة قوم امرئ القيس ، وهذا يقوّي لدينا صنع هذا الخبر ، ودافع صانعه إثبات فضيلة لامرئ القيس ليست لغيره من الشعراء ، وهي أن رسول الله - ﷺ - عدّه قائد الشعراء وصاحب لوائهم إلى النار ، مع أن فضل امرئ القيس على الشعراء بما اخترع من المعاني ، وسبق إليه من الصور أمر مسلم به عند الشعراء والنقاد ، فهو ليس بحاجة إلى صنع مثل هذا الخبر ، ولكنها

العصبية العمياء ، والفخر الكاذب ، والتعالم بما ليس له أصل أو حقيقة .

ونعود إلى تأمل أقوال العلماء والنقاد الذين أقرّوا لامرئ القيس بالأولوية في الشعر ، وبالسبق على الشعراء ، وهي أقوال لا نشك في معرفة الجاحظ بها والاطلاع عليها ؛ لأنها من أقوال سابقيه ومعاصريه ، ولا نشك في أنه قد اتكأ عليها في صياغة دعواه حداثة ميلاد الشعر وصغر سنه على الرغم من أن سياقها لا يؤيد دعوى الجاحظ ، ولا يدل على أن امرأ القيس أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه ، ومن ثمّ فاتها لا تسوّغ للجاحظ ولا لغيره أن يؤرخ لميلاد الشعر بامرئ القيس .

فقول عمر بن الخطاب - ؓ - (ت: ٢٣هـ) [ ٥٦ : ١/ ١٢٧ ] : "امرؤ القيس سابق الشعراء خسف لهم عين الشعر" ، وزاد ابن رشيّق [ ٣١ : ١/ ٩٤ ] : "فافتقر عن معانٍ عورٍ أصحّ بصر" ، معناه أن امرأ القيس سبق الشعراء إلى تجويد الشعر وتحسينه بما فتن من الموضوعات ، وبما ابتكر من الأساليب ، وابتدع من المعاني واخترع من الصور ، وضرب عمر بن الخطاب - ؓ - لذلك مثلاً بالعين أي البئر الثرة التي لا ينقطع ماؤها ، يُقال [ ٣١ : ١/ ٩٤ ] "خسف العين أو البئر" إذا حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير لا ينقطع ، أي أن امرأ القيس وقع على معانٍ كانت خفية على من قبله ومن عاصره من الشعراء ، فكشفها بذكائه وفطنته وأظهرها في شعره مجلوة في صورة فنية جيدة فتح بها باب القول للشعراء فحدّوا حذوه ، ونسجوا على منواله ، واتبعوا طريقته في التعبير والتصوير .

أن قول عمر بن الخطاب - ؓ - (ت: ٢٣هـ) لا يعني أن امرأ القيس سابق الشعراء إلى قول الشعر ، وإنما يعني أنه جاء والشعراء تطرق من الشعر فنونا ، وتقول منه أقوالا ، ولكنه لذكائه

وفطنته وأصالته موهبته تناول تلك الفنون والأقوال وقدمها في شعره على نحو أبرز كامن الجمال فيها ، وأظهر حسناتها وألقها ، بما افتن من موضوعات ، وابتكر من أساليب ، وابتدع من المعاني ، واخترع من الصور ، فتأثرت به الشعراء ، واتبعوا مذهبه واقتفوا طريقته في بناء شعرهم وصياغة أساليبهم ، وعرض معانيهم في صور أنيقة وخيال بديع .

وهذا الحكم من عمر بن الخطاب - ؓ - لم يكن صادرا عن هوى أو ميل شخصي ، وإنما صدر عن خبرة فنية عميقة وتذوق دقيق للشعر العربي قبل امرئ القيس وبعده ، فهذا التذوق وتلك الخبرة سمحا له يعقد هذه الموازنة الفنية ، وإصدار هذا الحكم . فقد عُرف عنه - ؓ - سعة الحفظ وكثرة رواية الشعر ، وأنه بلغ من سعة الحفظ وكثرة الرواية وحسن التذوق درجة عالية جعلته لا يبرم أمرا ، ولا يعرض له عارض من أمور الدنيا وشئونها إلا أنشد فيه بيت شعر ، فكان من أعظم أهل زمانه بالشعر ، وأنفذهم فيه معرفة وأبصرهم بمعاني الشعراء . وقد أقر له الجاحظ بذلك وأثبتته في كتبه [١٧ : ٤٦/٣ ، ٥٩٠/٥ ، ١٦ : ٤٥ ، ١٣٩ ، ٤٤١ ، ٢/٣٢٠] .

إن قول عمر بن الخطاب - ؓ - بسبق امرئ القيس الشعراء إنما هو سبق فني بما ذلل لهم من فنون الشعر ، وبما بصرهم من المعاني والصور ، وليس سبقا إلى قول الشعر نفسه . وهذا السبق الفني المفهوم من قول عمر هو ما يفهم من قول أبي عمرو بن العلاء (ت : ١٥٤هـ) الذي رواه الجاحظ فقال [١٦ : ٨٤/٤] : "وزعم أبو عمرو بن العلاء : أن الشعر فُتح بامرئ القيس ، وختم بذي الرمة" . فالمفهوم من كلامهما واحد كما هو واضح .

ولا تزعجنا كلمة "زعم" التي صدر بها الجاحظ روايته قول أبي عمرو بن العلاء ، فإنها وإن كانت مطية الكذب - كما يقال - أو أمارة

على الشك في صدق القول ، فإنها هنا منصرفة إلى عجز كلام أبي عمرو "ختم بذي الرمة" وليست منصرفة إلى صدره "فتح الشعر بامرئ القيس" ؛ لأن الجاحظ مقرّ ومعترف بأن الشعر ابتداء بامرئ القيس ومهلل بن ربيعة . ولكنه غير مقرّ ولا معترف بختم الشعر بذي الرمة غيلان بن عتبة (٧٧-١١٧هـ) الشاعر الأموي المعروف ، فقد جاء بعدد شعراء كثيرون أجادوا الشعر وتفننوا فيه، أشاد الجاحظ بشاعريتهم ، ونوه بموهبتهم وجودة طبعهم من أمثال بشار بن برد (ت: ١٦٧هـ) [١٦: ١/٤٩-٥٠] ، وأبي نواس الحسن بن هانئ (ت: ١٩٨هـ) [١٧: ٢/٢٧] وأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم (ت: ٢١١هـ) [١٦: ١/٥٠] ، وغيرهم كثير .

وهذا الفهم الذي فهمناه من قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقول أبي عمرو بن العلاء ينطبق أيضا على قول الأصمعي ، فقد سبق أن ذكرنا قول الأصمعي الذي رواه عنه أبو حاتم السجستاني ، ويحسن بنا إعادته في هذا الموطن . قال أبو حاتم [٣٤: ٢٩] : " سمعت الأصمعي عبد الملك بن قريب غير مرة يفضل النابغة الذبياني على سائر شعراء الجاهلية . وسألته آخر ما سألته قبيل موته: من أول الفحول ؟. قال : النابغة الذبياني ، ثم قال : ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس [٥٧: ٨٣] :

وَقَاهُمْ جَنْحُمْ بَنِي أَبِيهِمْ  
وَبِالْأَشْقَيْنَ مَا كَانَ الْعِقَابُ

قال أبو حاتم : فلما رآني أكتب كلامه ، فكرّ ثم قال : بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الحظوة والسبق ، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه".

ويروي أبو حاتم عن الأصمعي فيقول [٣٤: ٦١] : " قال الأصمعي : سئل شيخ عالم عن الشعراء ، فقال : كان الشعر في الجاهلية في ربيعة ، وصار في قيس. ثم جاء الإسلام فصار في تميم . قلت للأصمعي : لم لم يذكر اليمن ؟. فقال: إنما أراد بنى نزار ،

فأما هؤلاء كلهم فإنما تعلموا من رأس الشعراء : امرئ القيس .  
وإنما كان الشعر في اليمن " .

فامروء القيس عند الأصمعي أول الفحول ورأس الشعراء  
وسابقهم وأستاذهم ، وهذه الأوليّة والرئاسة والسبق والأستاذية لم  
يستحقها امرؤ القيس لقدم زمنه بالنسبة إلى زمن النابغة الذبياني  
الذي كان الأصمعي نفسه يفضل على سائر شعراء الجاهلية ، ولا  
بالنسبة إلى زمن غيره من الشعراء ؛ لأن امرأ القيس مسبق بكثير  
من الشعراء هم أقدم منه زمنا ، ذكر الأصمعي منهم - كما سبق أن  
أشرنا - مهلهل بن ربيعة التغلبي وذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم  
، وضمرة رجل من كنانة ، والأضبط بن قريع السعدي ، وفي النص  
الذي أماننا ذكر الأصمعي أن امرأ القيس مسبق بشعراء اليمن .

لقد استحق امرؤ القيس هذه المرتبة عند الأصمعي لأنه علا  
بطبعه فلم يسلك طريق تقليد من سبقه أو عاصره ولكنه تمثل شعرهم  
تمثلا حسنا وأبرز معانيهم وصورهم في أسلوب جديد مبتكر ، وسلك  
بها طريقا لم يسلكه أحد من الشعراء قبله أعانه على ذلك قوة طبعه  
وزيادة فطنته ، فتفرد عنهم وتميز عليهم بمذهب فني استحسنته  
العرب لما رأوه من جودة شعره . وتابعه عليه معاصروه ولاحقوه  
من الشعراء ، واضين بأستاذيته ، مقتدين به ، مقتفين أثره في  
إبداعهم .

وإذا كانت أوليّة امرئ القيس الفنية جاءت مبهمة في قول أبي  
عمرو بن العلاء "فتح الشعر بامرئ القيس" ، وجاءت معللة بإشارة  
موحية في قول عمر بن الخطاب : إنه "حسف للشعراء عين الشعر" ،  
وجاءت مفصلة بعض التفصيل في قول الأصمعي إنه جود الشعر  
وتعلم منه الشعراء فأخذوا من قوله واتبعوا مذهبه ، فإن ناقدا آخر  
من معاصري الجاحظ هو محمد بن سلام الجمحي قد فصل أسباب

هذه الأوكية الفنية التي استحقها امرؤ القيس فقال [٢١: ٥٥/١]:  
 "احتج لامرئ القيس من يقدّمه قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنه  
 سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها  
 الشعراء: لستيقاف صحبه، والتّبكاء في الدّيار، ورقة النسيب وقرب  
 المأخذ، وشبهه النساء بالظباء والبيض، وشيّه الخيل بالعقبان  
 والعصيّ وقيد الأوابد وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين  
 المعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهاً".

وذكر ابن سلام [٢١: ٨١/١-٩٦] أكثر من عشرين مثالا من  
 تشبيهات امرئ القيس التي استحسنتها العرب، واحتذتها الشعراء،  
 وهذه التشبيهات جاء بعضها في بيت، أو في بيتين، أو في  
 مجموعة أبيات فصل فيها امرؤ القيس في التشبيه والوصف فبدت  
 كلوحات مملوءة بالحركة والحيوية، مجسدة مشاعره النفسية  
 العميقة، وهذا يدل على فطنته، ودقة ملاحظته، وقوة إحساسه  
 بالحياة والأشياء من حوله.

ولهذا علّق الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - على ما ذكره  
 ابن سلام فقال [٢١: ٥٥/١ هامش رقم ٥]: "يريد - ابن سلام - ما  
 يتميز به شعر الملك الضليل من إخلاصه القول في النسيب، لا  
 يخلطه بصفة ناقته أو فرسه أو صيده أو مآثره، فإذا فرغ من  
 النسيب الخالص أخذ في أي معنى من هذه المعاني. وهذا بين جدا  
 في شعره. هذا على أني أرى أكثر هذه الفضائل، وإن كانت بيّنة في  
 شعر امرئ القيس، لا يتاح إثبات سبقه إليها لما ضاع من قديم شعر  
 العرب، ولأنها ليست من الخفاء بالموضع الذي يدل عليه هذا  
 الوصف المقرط بابتداعه لها، واتباع الشعراء له فيها. ولشعر  
 الملك الضليل براعة أخرى هي أحق بأن تكون السبب في تفضيله  
 وتقديمه على كثير من شعراء الناس لا العرب وحدهم".



وهذا الذي أشار إليه الشيخ شاعر صواب وحق ، وإن كان - رحمه الله - لم يبين لنا البراعة الأخرى التي هي أحق بأن تكون السبب في تفضيل امرئ القيس وتقديمه على كثير من شعراء الناس لا العرب وحدهم . ونرى أن هذه البراعة تتمثل في أن امرأ القيس كان ذكي الطبع ، قوي الفهم ، متوقد الذهن ، طلق اللسان ، قادر على التفنن في المعاني ، والإحاطة بها ، والغوص على دقائقها ، وعرضها في أسلوب رشيق ، وعبارة جيزة ، بعيدا عن الغرابية والوحشية والتكلف ، مع إخلاصه لفته وشعره ، فقد قاله فصاحة ولسنا ، وتغنى به حباً فيه وتجردا له وإخلاصا في مزاولته ، ولم ينشغل بغير نفسه ومشاعره وعواطفه ، فلم يقله لرغبة ولا لرغبة ، أو عن طمع أو جزع ، فجاء شعره معبرا عن وجدانه ومشاعره أصدق تعبير ، ومصورا ما مر به من سرور وألم ، وانكسار وانتصار ، أكمل تصوير ، وكان لموهبته الأصيلة وطبعه القوي السمح ، ومقدرته الفنية المتمكنة أكبر الأثر في مجيء شعره متميزا بالصدق الفني والشعوري ، وبهذا استحق امرؤ القيس التفضيل والتقدم على الشعراء .

روى أبو الفرج الأصفهاني بسنده [٣٧٦/١٦ : ٤] أن الناس في معسكر علي ابن أبي طالب (ت: ٤٠ هـ) - رضي الله عنه - اختصموا ليلة حتى ارتفعت أصواتهم في أشعر الناس ، فأقبل علي على الناس ، فقال: كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد ، وغاية واحدة ، ومذهب واحد في القول ، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد ، وأحسن فيه ، وإن يكن أحد فضلهم ، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن جُبر ، فإنه كان أصحهم بادرة ، وأجودهم نادرة .

إن أولية امرئ القيس أولية قية وهي ليست مطلقة ، وإنما هي

أولية نسيية حكم له بها العلماء والنقاد وفقا لما وصل إليهم من الشعر الجاهلي الذي ضاع معظم ما قيل منه قبل امرئ القيس ، بل إن معاصريه قد ضاع من شعرهم الكثير والكثير ، بدليل أنا نجد في كتب الأدب والتراجم ومعاجم الشعراء أسماء لكثير منهم كانوا قبل امرئ القيس وبعده ، ولم تذكر لهم الكتب والمعاجم شعرا ، وإذا روت شيئا من أشعارهم فإنما تروي البيت أو البيتين أو بعض الأبيات قليلة العدد ، بل إن امرأ القيس نفسه قد ذكر في شعره أنه تأثر في بكاء الأطلال وبكاء الديار والدمن ، وهو شاعر ليس بأيدي الرواة شيء من شعره ، ثم إن الأصمعي الذي عدّ امرأ القيس أول الفحول ورأس الشعراء وأستاذهم قد صرح بأن الشعر كان مزدهرا في اليمن قبل أن يزدهر على يد امرئ القيس في نجد .

مما سبق يتضح لنا أن أولية مهلهل وامرئ القيس التي قال بها العلماء والنقاد إنما هي الأولية الفنية ، ولكن الجاحظ رغبة منه في التفوق والتميز على معاصريه وسابقيه جعلها أولية قول الشعر .

ولكن ما الذي دفع الجاحظ إلى تحديد عمر الشعر بمائة وخمسين عاما قبل الإسلام ، أو مائتي عام بغاية الاستظهار على حدّ قوله ؟.

الذي لا شك فيه هو أن الجاحظ قد وجد في أقوال العلماء والنقاد ما يفيد اختلافهم في تحديد زمن الشعراء قبل الإسلام ، فقد ورد في قول عمر بن شبة (ت: ٢٦٢هـ) [٣٧ : ٤٧٧/٢] أن مهلهلا وامرأ القيس وغيرهما من الشعراء الذين ادعت لهم القبائل التقدم والأولية متقاربون في الزمن ، ولعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها . وجاء في الخير الذي رواه أبو العباس ثعلب (ت: ٢٩١هـ) عن الأصمعي (ت: ٢١٦هـ) [١٤ : ٤١١/٢] أن مهلهل بن ربيعة

وذؤيب بن كعب وضمرة الكنانى ، والأضبط بن قريع كانوا قبل الإسلام بأربعمئة سنة. وأن امرأ القيس كان بعدهم بزمان كثير . وعد محمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣١هـ) [٢١: ٢٦/١] مهلهل بن ربعة أول من قصّد القصائد ، وطول الأشعار ، وذكر الوقائع في شعره ، وحدّد زمانه فقال [٢١: ٢٩/١] : " وكان ذلك على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف " .

إذن كانت قضية تحديد زمن أقدم الشعراء ، ومتى كان قبل الإسلام ؟ من القضايا التي شغلت العلماء والنقاد في عصر الجاحظ مما دفعه إلى المشاركة وإبداء رأيه فيها مرّوا بعلمه وسعة ثقافته ، ومستندا إلى ما استقر لديه ، وثبت عنده - وهو غير صحيح كما بينا - من أن امرأ القيس ومهلهل أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه ، ومستفيدا من أقوال معاصريه وبخاصة ابن سلام الجمحي الذي كان دقيقاً في تحديد زمن مهلهل بن ربعة ، وأنه كان على عهد هاشم بن عبد مناف وابنه عبد المطلب بن هاشم ، وإن كان الجاحظ غلط ابن سلام حقّة فلم يشر إلى استفادته منه في تحديد عمر الشعر العربي بمائة وخمسين عاماً قبل الإسلام أو مائتي عام بغاية التقدير أو الاستظهار على حدّ قوله .

فمن المعروف أن رسول الله - ﷺ - بُعث وهو ابن أربعين سنة ، ومات جدّه عبد المطلب وهو - صلى الله عليه وسلم - ابن ثمانين سنوات فهذه اثنتان وثلاثون سنة ، ومن الثابت تاريخياً [٢: ١٠/٢] أن هاشم بن عبد مناف مات بغرة وهو ابن خمسة وعشرين عاماً ، وفي السنة التي مات فيها هاشم ولد له ابنه عبد المطلب [٢: ١٠/٢] وقد اختلف العلماء في عمر عبد المطلب ، فقال بعضهم [٣٣: ١٥٤/٤] إنه عاش ثمانين سنة ، وذهب آخرون [٢٣: ١٧٤] و [٢: ٩/٢] إلى أنه توفي وله مائة وعشرون سنة ، وذهب

السهيلى [٣٦: ٧/١] إلى أنه عاش مائة وأربعين سنة . وبحساب ما بين هاشم ومجيء الله سبحانه وتعالى بالإسلام يتحصل لدينا نحواً من مائة وخمسين عاماً أو مئتي عام بحسب اختلاف العلماء فى تقدير عمر عبد المطلب بن هاشم جدّ النبيّ - ﷺ - .

وبالتأمل فى قول عمر بن شبة الذى حدّد زمان مهلهل وغيره من قدامى الشعراء بأنه لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها ، وأيضاً بتأمل ما رواه ثعلب عن الأصمعي بأن مهلهلا كان قبل الإسلام بأربعمئة عام نجد هذين التحديدين لا يتفقان وحقائق التاريخ ، فمن المعروف أن مهلهل بن ربيعة هو الذى أشعل بسيفه وشعره نيران حرب البسوس بين بكر وثعلب أخذاً بثأر أخيه كليب ، وأنه حرص على أن تظل جذوتها مشتعلة حتى تشتفى نفسه انتقاماً من بكر ، فاستمرت الحرب كما يقول الرواة أربعين عاماً ، وانتهت صلحاً على يد الحنذر بن ماء السماء (ت: ٥٥٤م) أثناء ولايته الأولى على الحيرة فيما بين سنتي (٥٠٦-٥٢٥م) قبل أن يطرده قباز كسرى فارس ويولّى مكانه الحارث بن عمرو الكندي جدّ الشاعر امرئ القيس ، وهذا يعنى أن حرب البسوس ظلت مشتعلة فى الفترة ما بين الربع الأخير من القرن الخامس الميلادى والربع الأول من القرن السادس الميلادى (٤٧٥-٥٢٥م) فإذا عدنا إلى طفولة المهلهل وشبابه وجدنا أنفسنا فى منتصف القرن الخامس الميلادى (٤٥٠م) أو قبله بقليل . وبهذا يصدق أن مهلهل بن ربيعة كان - كما قال الجاحظ - قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً أو ما يقارب المائتي عام ، وليس - كما قال عمر بن شبة - بمائة سنة قبل الهجرة أو قريباً منها ، وليس بأربعمئة عام كما روى ثعلب عن الأصمعي .

وأما كون امرئ القيس يعد مهلهل بزمان كثير كما ورد فى الخبر الذى رواه ثعلب عن الأصمعي فأمر يعيد عن الصواب لأن امرأ

القيس ابن أخت مهلهل ، أمه فاطمة بنت ربيعة التغلبي أخت مهلهل وكليب ، ولا يُصَوَّر عقلا ولا واقعا أن يكون بين الخال مهلهل وبين ابن أخته امرئ القيس زمان طويل حتى وإن كان امرؤ القيس - كما روى الرواة [٤ : ٨٧/٩] و [٢ : ٣٠٦/١] أصغر أبناء أبيه حُجْر بن الحارث الكندي .

إن امرأ القيس كان في شبابه معاصرا خاله المهلهل ، فمن الثَّابِت تاريخيا [٥٦ : ١١٧/١] [٢ : ٢٥٦/١] [٦٤ : ٦١٤-٦١٥] . أن كسرى أنو شروان تولى ملك فارس سنة (٥٣١م) بعد هلاك أبيه قباد ، وأنه بادر بطرد الحارث الكندي جد امرئ القيس عن ملك الحيرة وأعاد عليها المنذر بن ماء السماء ، وقد عمل المنذر جاهدا على اجتثاث ملك كندة في بلاد العرب ، فنتبع الحارث ولحق به في أرض بني كلب ، فهرب الحارث ناجيا بنفسه تاركا ماله وهجائنه فانتهبها المنذر وأسر من كندة اثني عشر فتى - وقيل ثمانية وأربعين - وكان امرؤ القيس معهم ولكنه هرب ، فأمر المنذر بهم فقتلوا في ديار بني مرينا بالقرب من الكوفة. وهم الذين رثاهم امرؤ القيس بقوله [٥٧ : ٢٣٧] :

يَسْأَلُونَ الْعَشِيرَةَ يَقْتُلُونَ	مُلُوكًا مِنْ بَنِي حُجْرٍ بَنِ عَمْرِو
وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرْيَتَا	فَلَوْ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ أَصِيبُوا
وَلَكِنْ فِي الْبُلْدَاءِ مَرْيَتَا	فَلَمْ تَفْسَلْ جَمَاعَتُهُمْ يَسِيرُ
وَتَتَزَعُّ الْحَوَاجِبَ وَالْعَيُونَا	تَظَلُّ الطَّيْرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ

ولم يلبث الحارث الكندي أن مات بأرض بني كلب ، وكان قد فرق أبناءه ملوكا على قبائل العرب ، وبتحريض من المنذر بن ماء السماء وبسبب عسف حُجْر بن الحارث وجوره على بني أسد - وكان ملوكا عليهم - طمع بنو أسد في حُجْر فقتلوه وانتهبوا ماله وكان مقتله بعد موت أبيه بمدة وجيزة [١٩ : ١١٤] ، [٤ : ٨٥/٩] وتحمل ابنه امرؤ القيس تبعة الأخذ بثأره فجمع لبني أسد الجموع وأوقع

بهم، ولما اشتطَّ في الأخذ بثأره تفرقت عنه قبائل العرب من بكر وتغلب وغيرها بتحريض من المنذر بن ماء السماء الذي كان لكندة وامرئ القيس بالمرصاد . وهذا يعني أن امرأ القيس حين نهض لطلب ثأر أبيه كان رجلاً وفارساً معهوداً ، ولم يكن غلاماً ولا شاباً كما جاء في بعض الروايات [٤ : ٩/ ١٨٨] لأنه من غير المعقول أن تسلم بكر وتغلب وغيرها من القبائل التي ساعدته أمر قيادها ، وزمام أمرها إلى غلام حدث أو إلى شاب قليل التجربة صغير السن ، فامرؤ القيس - في رأينا - كان يومئذ رجلاً قارب الثلاثين من عمره أو تجاوزها بقليل ، وعلى هذا يكون مولده في مطلع القرن السادس الميلادي (٥٠١م) أو في السنوات الأولى منه ، وبهذا يكون قد عاصر في شبابه خاله المهلهل بن ربيعة ، وليس - كما قيل - أنه كان بعد مهلهل بزمان طويل .

وإذا تأملنا الخبر الذي رواه ثعلب عن الأصمعي ويفيد بأن مهلهل بن ربيعة ، وذؤيب بن كعب ، وضمرة الكناني ، والأضبط بن قريع السعدي كانوا قبل الإسلام بأربعمائة سنة . نجده لا ينطبق إلا على الأضبط بن قريع وحده ، فمهلهل كما بينا بينه وبين الإسلام مائة وخمسين عاماً أو مائتي عام بغلبة التقدير ، أما الأضبط بن قريع فأخباره تفيد بأنه جاهلي قديم كان قبل الإسلام بدهر طويل [٥٥ : ١/ ١١٧] وأنه من المعمرين [٣٥ : ١١] ، وهو من سادة بني تميم والعرب الذين اجتمع لهم الموسم وقضاء عكاظ في الجاهلية [٢٣ : ١٨٢] ، وكان فارساً جرّاراً قدام سعاداً لحمير وألفافها في يوم صنعاء فقتل منهم وأسر وجدع ثم بنى أطمًا وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء [٢٣ : ٢٤٧] ، [٥٦ : ١/ ٣٨٢] .

وقد نقل عبد القادر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) [١٠ : ١١/ ٤٥٤] عن الشيخ خالد الأزهرى (٩٠٥هـ) ما يفيد بأن الأضبط بن قريع

كان قبل الإسلام بخمسمائة عام ، ومعنى هذا أن الأضبط كان من رجال القرن الأول الميلادي (١٠٠-١م) وهو تحديد قريب من الصواب ، فالأضبط أسبق وأقرب من مهلهل في سلسلة النسب إلى نزار بن معدّ بستة آباء تستغرقهم مدة ثلاثمائة سنة وأكثر إذا وضعنا في الحسبان طول أعمار القدماء وطول الفترة بين الجيل والجيل والتي تصل إلى خمسين سنة ، فإذا أضفنا هذه المدة - الثلاثمائة سنة - إلى المائة والخمسين أو المائتين التي تفصل بين مهلهل والإسلام تحصل لدينا ما يقرب من خمسمائة عام .

وذؤيب بن كعب أسبق من الأضبط بن قريع وأقرب منه في سلسلة النسب إلى نزار بن معدّ بثلاثة آباء مما يعني أنه كان من رجال القرن الثاني قبل الميلاد ، وأنه أقدم من مهلهل بن ربيعة بما يقارب خمسمائة عام ، وهذا يبطل الخير المروي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢١٠هـ) [٦٣ : ٤٨٣] الذي جاء فيه "ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم كان قبل امرئ القيس بثلاثين سنة ، وبعد مهلهل في تقصيد القصيد" .

وأما ضمرة بن بكر الكنانى فإنه أسبق من ذؤيب إلى نزار بأب واحد فبينه وبين نزار ثمانية آباء ، وهذا يعني أنه معاصر لذؤيب بن كعب أو أقدم منه بقليل .

وقد روى ابن سلام شعراً لجماعة من الشعراء بينهم وبين معدّ ثمانية آباء ، أي أنهم من معاصري ضمرة بن بكر الكنانى وعدّ ابن سلام شعرهم من قديم الشعر وصحيحة ، وهؤلاء الشعراء هم [٢١ : ٢٦-٣٢] :

١- العنبر بن عمرو بن تميم بن مرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . وقد اتصل الشعر في ولد العنبر بن تميم فابنه جندب شاعر [٦٣ : ٤٧] وحفيده جهينة بن

جندب شاعر [٦٣ : ٤٧٢] .

٢- مالك وسعد ابنا زيد مناة بن تميم ، ولسعد بن زيد مناة أشعار غير ما رواه ابن سلام ، جمعها صاحب كتاب "شعر بني تميم في الجاهلية" [٦٣ : ٨٣-٨٥] .

٣- دويد بن زيد بن نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة بن معد بن عدنان .

وروى أبو الفرج الأصفهاني (ت: ٣٥٦هـ) شعراً لخزيمة بن نهد بن زيد ، وهو - كما هو واضح من نسبه - عم دويد بن زيد بن نهد السابق ذكره ، قاله في محبوبته فاطمة بنت يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد ، فقال [٤ : ١٣/٧٨-٨٠] :

ظَنَنْتُ بِأَلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا	إِذَا الْجَوَازُ أَرْدَقَتِ الثَّرِيَا
وَأَنْ أَوْفَى وَإِنْ سَكَنَ الْحُجُونَا	ظَنَنْتُ بِهَا وَظَنَّ الْمَرْءُ حَوْبَا
هَمُومٌ تُخْرِجُ الشَّجْنَ اللَّافِينَا	وَحَالَتْ دُونَ ذَلِكَ مِنْ هُمُومِي
جَنُوبَ الْحَزَنِ يَا شَحَطًا مَبِينَا	أَرَى ابْنَةَ يَذْكُرُ ظَعْنَتِ فَحَلَّتْ

وفي أخبار خزيمة بن نهد أنه قتل والد معشوقته لرفضه تزويجه منها ، وبعد أن قتله غيلة قال :

فِيهَا يَقُولُ بِهِ الرَّنَجِيلُ	قَتَاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ الْعَبِيرِ
فَتَبَخَّرَ لَنْ يَخَالَتَ أَوْ ثِيْلُ	قَتَلَتْ أَبَاهَا عَلَى حَبِّهَا

وروى ابن سلام الجمحي [٢١ : ١/٣٣] شعراً صحت نسبته إلى أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فبين أعصر وبين معد أربعة آباء فقط ، وهذا يعني أنه من أقدم الشعراء وأن بينه وبين الإسلام ما يقارب خمسة عشر قرناً أو يزيد ، ثم إن المشهور لدى العلماء أن مضر بن نزار بن معد هو أول من رجز للابل والرَّجَز ضرب من الشعر ، مما يعني أن العرب عرفوا الشعر قبل مهلهل بأكثر من ستة عشر قرناً . وأنهم تغنوا به منذ أقدم العصور ، تعبيراً عن وجداناتهم ، وتصويراً لما مرَّ بهم من أحداث ، فقد روي [٢١ : ١/١١] أن معد بن عدنان كان يإزاء كلِّم الله موسى



بن عمران - عليه السلام - أو قبله قليلا ، وقد أثبت المؤرخون [٦٤ : ٣٩٧] أن موسى - عليه السلام - من رجال القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأنه خرج بالإسرائيليين من مصر حوالي عام (١٢١٤) قبل الميلاد .

فالشعر العربي - كما هو واضح من تقدير أزمان هؤلاء الشعراء - ضارب بجذوره في أعماق التاريخ ، ووجوده موغل في القدم ، فهو أقدم من مهلهل وامرئ القيس بالذهور قبل الذهور ، وبالأحقاب قبل الأحقاب ، وتحديد عمره بمائة سنة أو مائة وخمسين ، أو مائتي عام ، أو أربعمائة سنة - كما ورد فيما سقتناه من أقوال - تحديد غير صحيح ، وليس له سند من التاريخ .

إن التاريخ لعمر الشعر وتقصيد القصائد بمهلهل بن ربيعة أمر غير صحيح لأنه مبني على ما بأيدي الرواة في عصر الجاحظ وابن سلام من شعر السابقين على مهلهل متمثلا في البيت المفرد والبيتين والمقطوعات قليلة الأبيات ولم يرق على الاستقراء والتقصي . ثم إن المتأمل في هذا الشعر يجده ناضجا ومستويا فنيا مما يؤكد أن قائله متمكنون في فن الشعر ، آخذين بناصيته ، وأن هذا الذي بأيدي الرواة منه لا يمكن أن يمثل كل ما قالوه من شعر وإنما هو ما علق بأذهان الرواة ، وحفظته الذاكرة وتناقلته الأجيال بعد الأجيال لما فيه من حكم وأمثال أودعوها خلاصة تجاربهم في الحياة ، ونتائج ما مر بهم من أحداث ، أما باقي شعرهم الذي صوروا فيه عواطفهم وأفكارهم وسجلوا به أحداث حياتهم ووقائع أيامهم فقد ضاع لقدم أزمانهم ولاعتماد العرب - لأميتهم - على الحفظ في الذاكرة الإنسانية، ولهلاك كثير من رواة هذا الشعر وحفظته بالموت أو بالقتل في الحروب التي شغلت العرب بحاضرهم عن ماضيهم ، والذي لا شك فيه أن هذا الشعر الضائع كان به من القصائد الطوال عددا

وفيرا لأن الأصمعي روى قصائد تبلغ الثلاثين بيتا لشعراء أقدم من مهلهل بقرون وأزمان ، وعليه فإن الشعر أقدم مما توهم الجاحظ وطويله أقدم من مهلهل كما زعم ابن سلام .

قال شيخ العلماء الرواة أبو عمرو بن العلاء (ت: ١٥٤هـ) [٢١: ٢٥/١] : "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وأفرا لجاءكم علم وشعر كثير" . ونرجح أن أبا عمرو بن العلاء يقصد ضياع شعر العرب الذي قيل في الجاهلية القريبة من الإسلام والتي تبدأ بزمن مهلهل وامرئ القيس ، يؤكد ذلك ما عقب به ابن سلام الجمحي على قول أبي عمرو ، قال : [٢١: ٢٦/١] : "ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ... ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذي تالهما من ذلك أكثر ، وكنا أقدم الفحول ، فنعلم ذلك لذلك " .

فإذا كان عبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد وهما من معاصري مهلهل وامرئ القيس ومن شعراء الجاهلية القريبة من الإسلام قد ضاع كثير من شعرهما ، وأيضا ضاع كثير من شعر معاصريهما بسبب قدم أزمانهما كما قلل ابن سلام فإن شعراء الجاهلية قبل امرئ القيس ومهلهل وطرفة وعبيد أحق بأن يضيع جل شعرهم ومعظمه ، ولا يصل منه إلى العلماء والرواة في عصر الجاحظ وابن سلام إلا نتفا تعد أقل من القليل بسبب توغلهم في القدم .

أن ما عرضناه من أقوال العلماء والنقاد التي تفيد سبق مهلهل وامرئ القيس ، وتثبت لهما أولية على الشعراء ، مع اختلاف هذه الأقوال والأخبار في تحديد زمنهما قبل الإسلام يجعلنا لا نشك في أن هذه الأقوال والأخبار كانت في ذهن الجاحظ وعقله ، وفي باله وذاكرته وهو يكتب محدداً عمر الشعر العربي : لأنها من أقوال

السابقين عليه والمعاصرين له ، ولا نرتاب في أن الجاحظ قد سمعها منهم ، أو ممن روى عنهم ، أو اطلع عليها في مؤلفاتهم ؛ لأن كتاب الحيوان الذي أثار فيه الجاحظ هذه القضية به نصوص كثيرة صرح فيها الجاحظ بسماعه من الأصمعي ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وابن سلام الجمحي ، وابن الأعرابي ، وابن الكلبي ، وهشيم بن بشير السلمي ، وكلهم من معاصري الجاحظ ، كما يحفل هذا الكتاب بالكثير من أقوال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأقوال أبي عمرو بن العلاء ، وأيضاً به كثير من أشعار لبید بن ربیعة والفررتق<sup>(١)</sup>.

إن الحق الذي لا مرأ فيه هو أن الجاحظ قد اتكأ في صياغة دعواه صغر سن الشعر وحداثة ميلاده على ما جاء في أقوال هؤلاء العلماء والنقاد التي تثبت أولية فنية في الشعر لمهلهل وامرئ القيس اعتماداً على ما وصلهم من الشعر الجاهلي واستناداً إلى ما يحملته شعرهما من سمات وخصائص فنية ، وهي - في رأينا - أولية نسبية وليست مطلقة لا تنفي وجود شعراء أسبق منهما زمناً وأقدم عصراً كان شعرهم على درجة عالية من الجودة والنضج الفني ، ولكن لم يصل منه إلى العلماء والرواة في عصر الجاحظ سوى أبيات قليلة ومقطوعات يسيرة لموت رواة وحفظته أو لإهمال الرواة له فضاء مع ما ضاع من أخبار العرب في الجاهلية .

ولكن الجاحظ غفل أو بالأحرى تغافل عن أن هذه الأقوال إنما تحكم لامرئ القيس ومهلهل بالأولية الفنية وليست أولية قول الشعر ، فنقل هذه الأقوال والأحكام من سياقها الذي يفيد سبقهما إلى تقصيد القصيد وتطويل الأشعار وذكر الوقائع والأحداث ، وإحكام الشعر وتجويد صنعته إلى سياق آخر هو الحكم على الشعر نفسه متى ولد؟.

(١) ينظر فهرس الأعلام الذي صنعه المرحوم عبد السلام هارون لكتاب "الحيوان" .

وعلى يد من نشأ ؟ مدفوعا بإعجابه بنفسه ، مزهواً بسعة ثقافته ، فصاغ دعواه ، وأخذ يبرهن على صدقها بما وقع عليه في شعر امرئ القيس ، وبما اطلع عليه من ثقافة اليونان الأقدمين ليثبت لنفسه وللناس أنه أتى بما لم يأت به أحد من معاصريه أو السابقين عليه .

إن الدوافع التي دفعت الجاحظ - كما بينا في عرضها ومناقشتها - لا تصلح أن تتخذ أساساً يبني عليه مثل ما ادّعا الجاحظ من صغر سنّ الشعر ؛ لأن سياقها مخالف لما قال به الجاحظ ، والشأن نفسه ينطبق على أدلته التي اعتمد عليها في تقرير دعواه كما سنبين في الصفحات التالية .

#### ثانياً : أدلة الجاحظ :-

استدل الجاحظ على صغر سنّ الشعر وحداثة ميلاده بدليين :

##### الدليل الأول :

هذا الدليل استمده الجاحظ من ثقافته الواسعة بعلوم العربية وبخاصة الشعر ، كما استمده من اطلاعه على ما ترجم إلى اللغة العربية - حتى عصره - من ثقافات الأمم الأخرى . فقد قاده النظر في شعر العرب وكتب الفرس والهنود واليونان إلى إدراك طريقة كل أمة ، واحتياها في تخليد مفاخرها ، وتقييد مآثرها ، وتسجيل علومها ومعارفها ، فالفرس خلّدوا مفاخرهم بالبنيان والكتب التي حفظت علومهم وخطب خطبائهم ، وللهنود كتب تروي آدابهم وحكم حكمائهم ، ولليونان كتب في الفلسفة وصناعة المنطق والعلوم الطبيعية ، أما العرب فقد سجلوا مفاخرهم ومآثرهم وتاريخهم وعلومهم في شعرهم الموزون المعقّى . وأقدم من عرفه الجاحظ من الشعراء العرب الذين قاموا بهذا العمل امرؤ القيس بن حُجر الكندي ، ومهلهل بن ربيعة التغلبي اللذين فتحا الباب - من وجهة نظره -

أمام الشعراء العرب فحذوا حذوهما ، وسلكوا طريقهما .  
 لقد اعتقد الجاحظ أن العرب وحدهم هم الذين سجلوا تاريخهم  
 ومعارفهم في شعرهم ، أما باقي الأمم فسجلوا معارفهم وعلومهم في  
 كتب يتداولونها جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر وليس لهم شعر  
 موزون مقفى على النحو الذي صنعه الشعراء العرب ، وما تدعيه  
 هذه الأمم من شعر إنما هو كما يقول الجاحظ [١٦ : ٣٨٤-٣٨٥]  
 : كلام منشور تكلفوا وضعه على ألحان الغناء بالمطّ والقبط ،  
 والبسط ، ويقال على السنة نسائهم غناء يرقصن به أولادهن ،  
 ويصورن به بتاريخ الحب ، ولواعج الشوق ، وآلام الهجر والصدّ .  
 ولما كانت كتب هذه الأمم - كما اعتقد الجاحظ - لا تشير إلى  
 أن لديها شعرا يسجل تاريخها ، وكانت كتب "أفلاطون" ( PLATO )  
 (ت: ٣٤٧ ق.م) ، و"أرسطو" ( ARISTO ) (ت: ٣٢٢ ق.م) وغيرهما  
 من علماء اليونان وفلاسفتهم أقدم من مهلهل وامرئ القيس بالدُّهور  
 قبل الدُّهور ، والأحقاب قبل الأحقاب ذهب الجاحظ إلى أن الشعر  
 حديث الميلاد صغير السنّ أوّل من نهج سبيله ، وسهّل الطريق إليه  
 مهلهل بن ربيعة التغلبي وامرؤ القيس بن حُجر ، وعدّه فضيلة  
 اختص الله بها العرب ، ومنّ تكلم بلسان العرب .  
 وليس في هذا الدليل من الصواب سوى أن أفلاطون وأرسطو  
 وغيرهما أسبق من مهلهل وامرئ القيس وأقدم منهما بزمان طويل ،  
 ذلك أن مهلهلا عاش في النصف الثاني من القرن الخامس والربع  
 الأول من القرن السادس الميلاديّين حوالي بين سنتي (٤٥٠-٥٢٥)  
 بعد الميلاد ، وعاش امرؤ القيس في النصف الأول من القرن  
 السادس الميلاديّ بين سنتي (٥٠٠-٥٥٠م) تقريبا ، أما أفلاطون  
 فقد عاش بين سنتي (٤٢٩-٣٤٧) قبل الميلاد ، وعاش أرسطو بين  
 سنتي (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) فبين مهلهل وامرئ القيس وبين أفلاطون

وأرسطو - كما هو واضح - فترة تصل إلى ثمانية قرون أو تزيد ، وهي فترة زمنية طويلة يصدق عليها قول الجاحظ : إنها دهور وأحقاب .

وأما ما يجانب الصواب ويخالف الحقيقة فهو ادعاء الجاحظ خلو الفرس واليونان والهنود من شعراء خلدوا مفاخر أممهم ، وسجلوا مآثرها ، وأن هذه الأمم لم تعرف الشعر إلا على النحو الساذج الركيك الذي قال به الجاحظ .

فللهنود أشعار [٦٠ : ٦٢-٦٣] يمتد تاريخها إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد يسمونها "الفيدات" وهي نصوص شعرية تشتمل على أناشيد للآلهة ، وعلى أساطير بطولية ، وأغاني فلكلورية ، وحكايات من الحياة اليومية ، وهذه "الفيدات" نصوص مقدسة عند الهنود ، يطلقون على ما فيها من أناشيد وأغاني وأساطير المصطلح "شروتى" ومعناه الحرفي "المنقول بالسماع" أي أنها - في اعتقادهم - قد سمعها من الآلهة القديسون والحكماء ، ثم سُمعت من الرهبان في الاحتفالات الدينية ، وسمعتها التلاميذ من معلمهم في المعابد .

وأيضاً للهنود [٢٦ : ١١٢-١١٣] ملاحم وأشعار تحكي تاريخ الهند وتاريخ آلهتها ، وما يتصل بهذه الآلهة من أساطير وحكايات ، أشهرها ملحمة "مها بهارتا" وملحمة "راما يانا" المعروفة باسم "راما يانا الكبيرة" وتبلغ أربعة وعشرين ألف بيت على وزن البحر المسمى عندهم "شلوكا" وفيها يحكي الإله "براهما" على لسان الرأهب "فالميكي" تاريخ الإله "راما" .

وأما اليونان فقد عرفوا الشعر قبل أفلاطون وأرسطو بدهور وأحقاب ، فقد نبغ فيهم شعراء ملأوا حياة اليونان شعرا ونشيدا وغناء حكوا فيه ما يدور حول آلهتهم من أساطير ، وسجلوا فيه ما يحدث في احتفالاتهم بأعياد آلهتهم من طقوس وشعائر ، وصوروا به

ما يسود في المجتمع اليوناني من عادات وتقاليد وأخلاق وسلوك ، وحفظوا به تاريخ اليونان وما مرّ بها من حروب ووقائع ، وما أحرزته من انتصارات ، وبخاصة نصرها الكبير في الحرب المشهورة "حرب طروادة" التي روى كثيرا من أحداثها ، وسجل بطولية اليونانيين فيها شاعر اليونان الأكبر "هوميروس" (Homer) ( ٩٠٠ - ٨٠٠ ق.م) في ملحمة الشهيرة "الإلياذة"<sup>(١)</sup> كما خلد في ملحمة "الأوديسا"<sup>(٢)</sup> سيرة أحد أبطال هذه الحرب وهو البطل "أوديسوس" (Odysseus) .

وإذا كان "هوميروس" قد عاش - كما يقول المحققون - في القرن التاسع قبل الميلاد فإن الكتب التي عُتيت بالأدب والنقد عند اليونان [٥١ : ١٨١ - ٥٠٠] قد ترجمت لشعراء أقدم من "هوميروس" كالشاعر "ثاميراس" (Thamyras) والشاعر "أورفيوس" (Orpheus) اللذين تعدّهما الأساطير الإغريقية من أعظم الشعراء قاطبة قبل "هوميروس" .

وجاء بعد "هوميروس" كوكبة من الشعراء تفخر بهم اليونان قديما وحديثا ، ففي القرن الثامن قبل الميلاد ظهر الشاعر "هسيود" (Hesiod) أعظم شاعر تعليمي في اليونان القديمة وصاحب التأمّلات الأخلاقية التي نظمها في شعره المعروف باسم "الأعمال والأيام" و "أنساب الآلهة" وعاصره الشاعر "أرخيلوكوس" (Archilocus) شاعر المراثي والهجاء والوصف . وتلاههما "أسخيلوس" (Aeschylus) (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) شاعر الوطنية والإحساس الدنيي العميق والملقب

- 
- (١) ترجمها إلى اللغة العربية شعرا الأستاذ سليمان البستاني ونشرتها دار إحياء التراث العربي ببيروت لبنان د . ت .  
(٢) ترجمها إلى العربية نثرا الأستاذ أمين سلامة ونشرتها دار الفكر العربي بالقاهرة .

بأبي التراجيديا والمسرح اليوناني . والشاعر "بندار" ( Pindar ) ( ٥١٨-٤٣٨ ق.م ) الذي مزج الدين والتأملات الأخلاقية بمديح الأبطال والآلهة ويعدّ من أعظم الشعراء الغنائيين عند اليونان . والشاعر "سوفوكليس" ( Sophocles ) ( ٤٦٩-٤٠٦ ق.م ) الذي يعدّ خليفة "أسخيلوس" في عمارة وبناء المسرح التراجيدي اليوناني . ومعاصره الشاعر "أوريبيديس" ( Euripides ) ( ٤٨٥-٤٠٦ ق.م ) ثالث الثالوث العظيم من شعراء التراجيديا عند اليونان : أسخيلوس وسوفوكليس وأوريبيديس . وقد دافع "أوريبيديس" في أعماله عن الحرية وناصر المضطهدين ، وجدّد في مضمون أساطير الآلهة والأبطال ، وأضاف إليها وابتكر منها ما يناسب أعماله الفنية فاتهمه "أرسطو" [٣: ٢٧] بعدم القدرة على بلاغة الإيجاز وعدم إحكام البناء الفني في مآسيه لإسهابه في الحوار ، وعدم بروز شخصياته بوضوح . والشاعر "أرسطو فانيس" ( Aristo phanes ) ( ٤٥٠-٣٨٥ ق.م ) وهو معاصر لأفلاطون ، ويعده اليونانيون أعظم شعراء الكوميديا ، ومسرحية الشهيرة "الضفادع"<sup>(١)</sup> التي سخر فيها من بعض أحوال المجتمع اليوناني ، ونقد فيها أساليب بعض الكتاب والشعراء ، تعدّ مسرحية في النقد الاجتماعي والنقد الأدبي على السواء . ومن أشهر شواعر اليونان الشاعرة الغنائية "سافو" ( Sappho ) التي ولدت حوالي سنة ( ٦١٢ ق.م )<sup>(٢)</sup>.

وقد تناول "أفلاطون" و "أرسطو" شعر هؤلاء الشعراء وشعر كثيرين غيرهم بالدراسة والتحليل والنقد ، فمن يطالع محاورات

(١) ترجمها إلى العربية د . لويس عوض . ينظر النقد الأدبي (اليونان) : ٨٣-١٧٩ .

(٢) ينظر الخطابة لأرسطو ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٦٥ .



أفلاطون : "فايدروس" <sup>(١)</sup> و"أيون" <sup>(٢)</sup> و"القوانين" <sup>(٣)</sup> و"الجمهورية" <sup>(٤)</sup> ، ومن يقرأ كتاب أرسطو "فن الشعر" <sup>(٥)</sup> يجد كمًا هائلا من النصوص الشعرية ، ويجد عدداً غفيرا من الشعراء أشار أفلاطون وأرسطو إلى أسمائهم وأعمالهم ، وبعض هؤلاء الشعراء كانوا من معاصري أفلاطون وأرسطو ، وأكثرهم كانوا أقدم منهما زمنا وأسبق عصرا .

وقد أثمرت دراسة "أفلاطون" و "أرسطو" للشعر اليوناني عن آراء نقدية تناولت حقيقة الشعر وطبيعته الفنية ، وعرفت بأجناسه وأنواعه وأغراضه وفنونه ، وبيّنت ما يميّز به كل منها من خصائص وسمات فنية في البناء والشكل والأسلوب والمعاني والصور وغيرها من العناصر الفنية ، فأقاما بذلك صرحا نقديا شامخا كان له تأثيره القوي في مسيرة النقد الأدبي عند من جاء بعدهما من نقاد الأدب في كل زمان ومكان ، ومثل هذا النقد لا يمكن أن يكون نتاج دراسة نماذج شعرية ركيكة وضعيفة كالنوع الذي أشار إليه الجاحظ ، وإنما هو نتاج دراسة نماذج شعرية جيدة وآثار أدبية ممتازة تغنى بها كوكبة من شعراء اليونان المبدعين .

فهل كان الجاحظ حين نفى الشعر عن غير العرب ، وادّعى بأنه فضيلة اختص الله بها العرب ومن تكلم بلساتهم ، مدفوعا بما عُرف عنه من تعصب للعرب ؟ أم أنه لم يكن يعرف لغير العرب شعرا

(١) ترجمها إلى العربية د . أميرة حلمي مطر .

(٢) ترجمها إلى العربية د . لويس عوض . ينظر النقد الأدبي (اليونان) : ٣١-١٢ .

(٣) ترجمها د . محمد حسن ظاظا .

(٤) ترجمها إلى العربية حنا خباز ، وترجمها د . فؤاد زكريا .

(٥) ترجم إلى اللغة العربية ، وأقدم ترجمة ما قام به أبو بشر متى بن يونس ت ٣٢٨ هـ وقد حققها وقابلها على النص اليوناني د.شكري عياد ، وترجمه عن اليونانية د . عبد الرحمن بدوي .

سوى ما كانت تتغنى به نساؤهم وإماؤهم ؟.

حقاً لقد عُرف عن الجاحظ تعصبه الشديد للعرب ، ولكننا نرجح أن نفيه الشعر عن غير العرب لم يكن نابعا عن عصبية للعرب ، وإنما كان نابعا من عدم معرفته أن لغير العرب شعرا سَجَلُوا به مفاخرهم وتاريخهم وعلومهم كما فعل العرب ، والسبب في هذا أن حركة الترجمة إلى العربية منذ بدأت في العصر الأموي كانت منصرفة إلى ترجمة ما عند الأمم الأخرى من علوم الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والهندسة ، وفي العصر العباسي أضيف إليها ترجمة الفلسفة والمنطق والجغرافيا وسير الملوك ونظم الحكم والسياسة وكتب الحكم والأمثال والآداب والأسمار وغيرها من العلوم والفنون التي تدبر حياة الناس وتصلح معاشهم ، وتهذب سلوكهم .

أما الشعر فلم يُعن العرب بترجمة شعر الأمم الأخرى لصعوبة ترجمة الشعر من ناحية ، واكتفاء بما لديهم من شعر حاز درجة الكمال والنضج الفني ، بالإضافة إلى ما تشتمل عليه أشعار هذه الأمم من خرافات وأساطير ، وكفريات كتعدد الآلهة ووصفها بالسلوك المشين ، وهي أمور لا يجب أن تنقل إلى أمة الإسلام التي تدين بالتوحيد ، وتعتقد تنزيه الله سبحانه وتعالى ، وتصفه بكل كمال إلهي يليق بذاته المقدسة ، وتؤمن بأنه عز وجل ليس كمثله شيء ، وأنه تبارك وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ولقائل أن يقول : قد نلتمس للجاحظ العذر في عدم معرفته بشعر الفرس والهنود لأنهم وقد دخل معظمهم في الإسلام لم يحاولوا ترجمة شعرهم إلى العربية أو حتى الإشارة إليه لإقبالهم على تعلم العربية وحفظ شعرها وتذوقه مدفوعين بذلك إلى غاية دينية ودنيوية ، وربما لاشتغال شعرهم على ما قد يناقض عقيدة التوحيد . ولكننا لا نلتمس له العذر في نفي الشعر عن اليونان وهو الحريص

على الاطلاع على علومهم ، وقراءة كل ما تُرجم من كتبهم وبخاصة كتب أفلاطون وأرسطو وهي لا تخلو من الإشارة إلى شعراء اليونان ، وتروي كثيرا من نصوص الشعر اليوناني . فهل جهل الجاحظ مغزى هذه الإشارات إلى الشعر والشعراء اليونان ؟. وهل كان لا يعلم أن لأرسطو كتابا في نقد الشعر اليوناني؟.

لقد كان الجاحظ معجبا بفلسفة اليونان وعلومهم عامة ، وكان مبهورا بفلسفة أرسطو خاصة ، وقد بلغ به الاتيهار حدًا جعله ينعت أرسطو في رسالة التربيع والتدوير [١٨ : ٢٢٩] بالمعلم ، ويصفه في أكثر من ستين موضعا في كتاب "الحيوان" بصاحب المنطق<sup>(١)</sup>، بل إنه في هذا الدليل الذي تناقشه قدم أرسطو على من ذكرهم من علماء اليونان وفلاسفتهم ومنهم معلمه أفلاطون . وهذا يرجح أنه لم يكن يعلم بكتاب الشعر لأرسطو ، وأنه كان يجهل مغزى إشارات أفلاطون وأرسطو إلى الشعر والشعراء فيما اطلع عليه من كتبهما .

إننا نستبعد معرفة الجاحظ حقيقة آراء أفلاطون وأرسطو في الشعر ، أو أنه قد اطلع في كتبهما على نصوص شعرية لشعراء اليونان ؛ لأن ذلك لو حدث لما نفى الشعر عن اليونان ، ولما قال بحدائثة ميلاد الشعر وصغر سنه ، ولأدرك أن إشارات أفلاطون وأرسطو إلى الشعر لم تكن من قبيل التأمل الفلسفي ، والنظر العقلي ، والتفكير المجرد ، والقياس المنطقي، وإنما هي نتيجة دراسة واعية ، وتذوق فني عميق لأشعار المبدعين من شعراء اليونان المعاصرين لهما أو السابقين عليهما بأزمان وأزمان . وأيضا لعلم أن لليونان أشعارا سجلوا فيها تاريخهم وعلومهم ومعارفهم ، وأنها تسمو فنيا بدرجات ودرجات على النوع الذي عرفه من غنائهم .

(١) ينظر فهرس الأعلام الذي صنعه المرحوم عبد السلام هارون لكتاب "الحيوان" .

والَّذي حملنا على القول بعدم معرفة الجاحظ بالشعر اليوناني هو أن كتب أفلاطون وأرسطو تُرجمت إلى اللغة العربية بواسطة جماعة من الترجمة السريان ، وهم - كما يقول الدكتور شكري عياد (ت: ١٩٩٩م) [٥٢: ١٧٤-١٧٥ بتصرف] : "لم يكن لهم عناية أو إلمام بالأدب اليوناني ، لخلو بيئتهم الأدبية من كل ما يحفزهم إلى دراسته ، أو يعينهم على تذوقه ، وإنما كانت عنايتهم بالفلسفة اليونانية لامتزاجها بالدين ، كما عُنوا بالطب اليوناني لنفعه في الدنيا ... لقد أقبل السريان على تعلم الفلسفة حين عدّها آباء الكنيسة وسيلة للإقناع ، وسبيلا إلى نشر الدين ، فكان طبيعيا أن يتجهوا إلى المنطق الأرسطي خاصة يترجمونه ويدرسونه ويشرحونه ، واشتدت عنايتهم به منذ شجرت الخلافات الدينية الحامية بين النساطرة واليعاقبة<sup>(١)</sup> ، واتخذ كل فريق من المنطق الأرسطي أداة لمجادلة خصمه ، فكان اشتغالهم بالمنطق أضعاف اشتغالهم بغيره من كتب

(١) النسطرة : فرقة من النصارى تنتسب إلى نسطورس بطريرك القسطنطينية (٤٢٨م) وتذهب إلى أن للمسيح طبيعتين : إلهية وإنسية ، فمريم العذراء لم تلد الإله بل ولدت الإنسان فقط ، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالإله اتحادا مجازيا ؛ لأن الإله وهبه المحبة والنعمة فصار بمنزلة الابن . وقد أدى به هذا القول إلى الطرد من الكنيسة ولعنه .

اليعاقبة : فرقة أخرى من النصارى تنتسب إلى رجل ظهر في القرن السادس الميلادي ترى أن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية ، وأنه خلق من ثلاثة أقانيم : الأب والابن وروح القدس ، وهو مذهب الكنيسة السريانية . وعلى الرغم من أن هذا المذهب نشأ قبل يعقوب البرادعي بأمد طويل إلا أنه نسب إليه ؛ لأنه كان من أقوى دعائه الذين انتصروا له بقوة الحجة وبلاغة القول . ينظر : الأدلة الكتابية على فساد النصرانية للدكتور أحمد حجازي السقا ص : ١٣٥-١٣٦ . القاهرة - دار الفضيلة للنشر والتوزيع .

أرسطو . أمّا عنايتهم بالأدب والشعر اليوناني فقد تأثرت بالدين أيضاً وكانت تبعاً له ، فقد رأوا فيهما ما يعينهم على تحرير العبارة ، وقوة الأسلوب ، لإفحام خصومهم ومجادليهم في أمور الدين ، وإذا فقد كانت الرابطة بين المنطق وبين "صناعة الشعر" قوية كل القوة - إذ كان كلاهما جزءاً لشيء واحد ، ووسيلة إلى غرض مشترك ، فاعتبار الشعر جزءاً من المنطق عند السريان لم يكن وهمًا ولا خطأ في الترتيب ، بل كان أثراً لواقعهم الأدبي ، وعلينا ألا نغفل عن مظاهر هذا الارتباط حين ينقل إلينا مترجم سرياني حديث أرسطو عن الشعر . يؤكد هذا أن اليونان منذ عهد أرسطو نفسه كانوا يعدّون الشعر أحد أنواع القول الخمسة ، وهي كما ذكرها الدكتور عبد الرحمن بدوي (ت: ٢٠٠٢ م) في مقدمة ترجمة كتاب الشعر لأرسطو [٣: ١٤] : "البرهاني ، والجدلي ، والخطابي ، والسوفسطائي ، والشعري" .

إن هؤلاء التراجمة السريان حين أقدموا على ترجمة كتب أرسطو نظروا إليها على أنها كتب في الفلسفة والمنطق . ولم يفتنوا إلى ما قد يكون بها من نصوص شعرية ومصطلحات أدبية ونقدية فترجموها على أنها من قبيل الفلسفة والمنطق ، وربما أعياهم فهمها على وجهها الصحيح - لعدم صلتهم بالأدب اليوناني - فترجموها ترجمة حرفية بحروف سريانية ، مما أدى إلى غموض معناها ، وعدم وضوح المراد منها ، وقد أشار إلى ذلك أحد المستشرقين الذي عنوا بفحص أساليب المترجمات اليونانية إلى السريانية والعربية فقال - وفق ترجمة الدكتور شكري عياد [٥٢: ١٦٨] : "أكثر الترجمات التي وصلت إلينا يشوب أسلوبها كثير من الغموض ، وتراكيبها كثير من الخطأ ، ونجد فيها كلمات استعملت في غير معانيها ؛ لأن المترجم أراد أن يؤدي النص السرياني - إلى العربية

- أداء حرفيا مسرفا ، وكان المترجمون السريان إذا صادفوا فقرة صعبة اكتفوا بترجمة كل كلمة يونانية بكلمة سريانية ، دون أن يحاولوا بحال ما كتابة عبارة تفهم ، وإنما لنجد في هذه الترجمات أيضا كثيرا من العبارات الخاطئة ، بل عبارات لا تفيد معنى ما . وأخيرا فإني أعتقد أن المترجمين كانوا إذا جهلوا معنى كلمة يونانية لا يخرجون البتة أن ينقلوها بحروف سريانية ، تاركين لقرائهم جهد البحث عما تفيدته تلكم الرطانة التي ابتدعوا" .

ويضاف إلى ما سبق ضعف هؤلاء المترجمين السريان في اللغة العربية وأصولها ، وعدم معرفتهم الوثيقة بالأدب العربي وفنونه ، مما أدى إلى ركاكة أساليبهم ، وعجزهم في كثير من الأحيان عن التعبير عن المعاني التي يترجمونها بأسلوب يفهمه القارئ العربي ، لضعف اتصالهم بالثقافة العربية ضعفا دلت عليه أساليبهم فيما ترجموه إلى العربية ، مما يدل على أن اتصالهم بالثقافة العربية لم يكن عميقا ولا وثيقا . فالسريان كما يقول الدكتور شكري عياد [٥٢ : ١٦٧] : "لم يندمجوا قط في محيط الثقافة الإسلامية كالفرس مثلا، بل ظلوا محتفظين بنظمهم التعليمية التي كانت لهم قبل الإسلام، فكان ناشئتهم يتعلمون في الأديرة ... وقل منهم من اتصل بالثقافة العربية اتصالا وثيقا" .

فإذا أقدم مترجم سرياني على ترجمة كتاب لأفلاطون أو أرسطو وبالكتاب نصوص شعرية ، ومصطلحات نقدية وأدبية ، وكان المترجم قليل البضاعة من الأدب العربي والأدب اليوناني ، وضعيف المحصول من العربية وقواعدها وأصولها ضعفا يجعله عاجزا عن التعبير بها تعبيرا سليما ، وكان حال الكتاب على النحو الذي قال عنه الجاحظ [١٧ : ٧٨/١] : " متقادم الميلاد ، دهري الصنعة تعاقبه المترجمون بالإفساد ، وتعاورته أيدي الخطاط والنساخ بشر من ذلك

أو بمثله ، وقد يكون به بعض الطمس والمحو أو السقط" ، فهل يمكن لمثل هذا المترجم أن ينقل معاني الكتاب على الوجه الصحيح الذي يكشف عن أفكار المؤلف ، ويوضح مقاصده ، ويبين مراده ؟. وهل يستطيع مثل هذا المترجم أن يبرز النصوص والشواهد الشعرية والمصطلحات الأدبية والنقدية التي اشتمل عليها الكتاب ، وأن يجليها ويبين للقارئ العربي حقيقتها ؟. وهل يمكن للقارئ العربي أن يستفيد من مثل هذه الترجمة أو أن يتأثر بها ؟.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة لا تكون إلا بالنفي ، وقد كان الجاحظ يدرك ذلك في مترجمي عصره فهم ليسوا في العلم باليونانية والعربية على القدر الذي يؤهلهم ويُمكّنهم من الترجمة الصحيحة ، كما أنهم ليسوا من التخصص فيما ينقلون من العلوم بالشيء المذكور ، نجد ذلك في قول الجاحظ [١٧ : ٧٥-٧٧ بتصرف] : "إنَّ التَّرجُمان لا يودّي أبداً ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذهبهِ ودقائق اختصاراتهِ ، وخفّيات حدودهِ ، ولا يقدر أن يوفّيها حقوقها ، ويؤدّي الأمانة فيها... إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريِف ألفاظها ، وتأويلات مخرجها ، مثل مؤلّف الكتاب وواضعه ، فمتى كان رحمه الله تعالى ابنُ البطريق ، وابن ناعمة ، وابن قرّة ، وابن فهيرز ، وثيفيل ، وابن وهيلي ، وابن المقفّع ، مثل أرسطاطاليس ؟... ولا بدّ للتَّرجُمان من أن يكون بيّانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتّى يكون فيهما سواء وغاية ، ... وكلّما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدّ على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء" .

والحق - باعتراف المترجمين - أنه ليس هناك باب من العلم

أعسر وأضيق ، وأشدّ على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه من ترجمة الشعر بوزنه وإيقاعه ، هذا إذا كان المترجم في العلم باللغة المنقول منها الشعر واللغة المنقول إليها على سواء وغاية ، فما بالنا إذا كان المترجم سريانيا ليس أدبيا في لغة قومه ، ولا صلة له بالشعر اليوناني ومعرفة فنونه ومصطلحاته الأدبية والنقدية ، لا شك في أنه سيزور عن ترجمته ويضرب عنه صفحا ، ثم إن الترجمة السريان كان همهم منصرفا لغاية دينية تخصهم إلى ترجمة ما في تراث اليونان من كتب في الفلسفة والمنطق وبخاصة فلسفة أرسطو ومنطقه فإذا صادفهم - وهم على الحال الذي بينا - نص شعري أو مصطلح أدبي ونقدي في كتب أرسطو وغيره فإنهم سيعتبرون ذلك بوصفه كلاما في الفلسفة والمنطق ، وإذا أعياهم فهمه وضعوا مقابل الحروف اليونانية حروفا سريانية تاركين القراء يخبطون خبط العشواء في الليل البهيم . وهذا يؤكد على أن الجاحظ لم يكن على علم ومعرفة بحقيقة ما ورد في ترجمات كتب أرسطو وأفلاطون من إشارات إلى الشعر اليوناني وشعرائه .

وأما ما يخص كتاب "فن الشعر" لأرسطو فإننا نرجح أن الجاحظ لم يكن يعلم به ، ولا يعرف عنه شيئا ، وأن هذا الكتاب لم يكن معروفا في عصر الجاحظ للأمور التالية :

١- أرسطو كان مشهورا في المشرق العربي والإسلامي بالفلسفة والمنطق ، ولم يكن مشهورا بالنقد الأدبي .

٢- الجاحظ لم يكن يعرف اليونانية ولا السريانية ، وبذلك فهو لا يعرف كل مؤلفات أرسطو ، وإنما يعرف منها ما ترجم إلى اللغة العربية فقط .

٣- الكتاب موضوعه نقد الشعر اليوناني وبيان خصائص فنونه وأجناسه ، وهذا لا يغري المترجمين السريان ولا يدفعهم إلى



المبادرة بترجمته إلى السريانية أو العربية لأمر خاصة تتعلق بهم وهي عدم صلتهم بالأدب اليوناني وبخاصة الشعر ، بالإضافة إلى ما في الكتاب من غموض واضطراب وعدم الإحكام في التأليف .

٤- كتاب أرسطو "فن الشعر" - كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في مقدمة ترجمته [٣: ٣٨] : "ينتسب إلى ذلك القسم من الكتب الأرسطية المسمى باسم "المؤلفات المستورة" أي تلك التي لم ينشرها على الناس ، بل كانت دروسا يلقاها في "اللوقيون"<sup>(١)</sup> على طلابه ، ومن خصائص هذا النوع الإيجاز وعدم الإحكام في التأليف والغموض ؛ لأن أرسطو كان يتخذ مذكرات للدرس يتكفل هو بشرحها أثناء الإلقاء والمحاضرة ، فلم يقصد تأليفها قصداً . وهذا يفسر لنا ما ورد عن هذا الكتاب في الفهرست للنديم (ت: ٣٨٠هـ) [٦٥: ٣١٠] : "وقيل إن فيه كلاماً لثامسطيوس"<sup>(٢)</sup>، ويقال إنه منحول إليه" يعني منحول إلى أرسطو.

٥- لو كان الجاحظ وهو المعجب بأرسطو يعلم أن له كتاباً في الشعر لتوقف عن نفي الشعر عن اليونان ، ولأمسك عن القول بصغر سن الشعر وحدثه ميلاده ، ولجد في طلب كتاب أرسطو "فن الشعر"، والاطلاع عليه إن كان مترجماً إلى العربية ، أو لالتمس من يعرفه بمضمونه ومحتواه إن لم يكن قد ترجم إلى العربية ، ولبادر إلى تصحيح موقفه من قضية عمر الشعر وصغر سنه التي أثارها في كتاب "الحيوان" ولأعلن عن ذلك فيما ألف بعده من كتب أو رسائل ،

(١) اللقيون أو اللوقيون : مدرسة أسسها أرسطو كان يعلم بها ، واكتسبت هذا الاسم لمجاورتها معبد الإله "أبولون لوكيوس" .

(٢) فيلسوف روماني كان بعد أرسطو بزمان طويل ، عاش في القرن الثالث الميلادي في زمن القيصر ليوليانس المرتد إلى مذهب الفلاسفة عن النصرانية .

ولكن كل هذا لم يحدث ، فرأيه في نفي الشعر عن غير العرب ثابت في كتاب "البيان والتبيين" [١٦ : ٣٨٤/١ - ٣٨٥] وهو من الكتب التي ألفها بعد كتاب "الحيوان" وقبل وفاته بمدة وجيزة . وليس فيه إشارة تدل على علمه أو معرفته بكتاب أرسطو "فن الشعر" أو تدل على تأثره به ، وهذا ما أكده الدكتور شكري عياد بقوله [٥٢ : ٢٣١] : "تستطيع أن نقرر أننا لم نعثر في كتاب "البيان والتبيين" كله على إشارة يمكن أن يوصل نسبها بكتاب الشعر" .

ولا يدفع ما ذهبنا إليه من عدم معرفة الجاحظ بكتاب "فن الشعر" لأرسطو ما ورد في الفهرست للنديم [٦٥ : ٣١٠] قائلا : " وللكندي مختصر في هذا الكتاب " ، والكندي هو فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح المتوفى سنة (٢٦٠هـ) وقيل قبل ذلك ، فهو معاصر للجاحظ ، ومختصره مفقود لا يعرف عنه سوى اسمه فقط ، ولا يعرف عن أي أصل لكتاب أرسطو عمل الكندي مختصره ، هل عمله عن أصل يوناني أو سرياني أو عربي ؟. وهل هو ترجمة حرفية لبعض فصول الكتاب أو لبعض نصوص منه ؟. أم أنه ترجمة لبعض معانيه وأفكاره ؟. وهل نظر إليه على أنه كتاب في الشعر ونقده أم نظر إليه على أنه كتاب في الفلسفة والمنطق ؟. كل هذه الأسئلة تظل قائمة ولا يمكن الإجابة عنها ما دام مختصر الكندي مفقودا .

إن وجود ترجمة عربية لكتاب "فن الشعر" لأرسطو أقدم من ترجمة أبي بشر متى بن يونس (ت: ٣٢٨هـ) أمر لم يقل به أحد ، ولهذا فإننا نرجح أن الكندي عمل مختصره عن أصل يوناني أو عن ترجمة سريانية أقدم من ترجمة إسحاق بن حنين (ت: ٢٩٨هـ) فقد عُرف عن الكندي استعاضته ببعض التراجمة في تفسير بعض كتب أرسطو دون أن ينتظر ترجمتها إلى العربية . جاء في الكلام على

كتاب "الحروف" لأرسطو ، وهو الكتاب المعروف باسم كتاب "الإلهيات" ما نصه [٦٥ : ٣١٢] : "وهذه الحروف نقلها أسطاط للكندي ، وله خبر في ذلك" .

والذي لا نشك فيه هو أن الجاحظ لم يعلم بمختصر الكندي ، ولا سمع به ، لأن الكندي - كما جاء في بعض الروايات - متأخر في الوفاة عن الجاحظ بما يقرب من خمس سنوات ، فلعله عمل مختصره بعد وفاة الجاحظ ، وعلى فرض أن الكندي عمل مختصره في حياة الجاحظ فإننا نرجح أن ذلك تم قبل وفاة الجاحظ بمدة وجيزة ولم يعلم به الجاحظ ، لأن الجاحظ قضى الشطر الأخير من حياته في البصرة وتوفي بها ، بينما كان الكندي مقيماً في بغداد وبها توفي ، ثم إن من المستبعد أن يُعلم الكندي الجاحظ بهذا المختصر ، أو أن يُهدي إليه نسخة منه ، فقد كان بينهما من التنافس والتباغض ما يكون بين المتنافسين المتعاصرين ، وقد بلغ هذا التباغض بينهما حداً جعل الجاحظ [٦٥ : ٢١١] يؤلف رسالة في فرط جهل يعقوب بن إسحاق الكندي .

ونختم مناقشة هذا الدليل فنقول: إنه دليل فاسد ، وحجة ضعيفة، وبرهان زائف لا يصح أن يبنى عليه حكم صحيح ولا رأي سديد في تقدير عمر الشعر ؛ لأنه لم يُبنَ على اطلاع وثيق ، ولا على استقراء تام لأشعار الهنود والفرس واليونان ، فلهم - كما بينا - أشعار سجلوا فيها تاريخهم ، وحفظوا بها مآثرهم وهي أشعار أسبق من كتب الفلاسفة الذين أشار إليهم الجاحظ بدهور وأحقاب ، مما يهدم دعوى الجاحظ حداثة ميلاد الشعر وصغر سنه ، وينقضها من أساسها.

#### الدليل الثاني :

هذا الدليل استمده الجاحظ من الشعر العربي فقال [١٧ : ٧٤/١] :  
 "ويدل على حداثة الشعر، قول امرئ القيس بن حجر [٥٧ : ١٢٦] :  
 إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسْبًا ضَيَّعَهُ الدُّخْلُونَ إِذْ غَدَرُوا

أَدَّوْا إِلَى جَارِهِمْ خَفَارَتَهُ  
لَا حَمِيرِيَّ وَقَى وَلَا عُدُسَ  
لَكِنْ عُوَيْرَ وَقَى بِذَمَّتِهِ  
وَلَمْ يَضَعْ بِالْفَيْبِ مَنْ نَصَرُوا  
وَلَا اسْتَأْخِرَ يَحْكُمُهَا التَّمَرُ  
لَا قِصْرَ عَابَتِهِ وَلَا عَوْرَ

فانظر ، كم كان عمرُ زُرارة [بن عُدس] ؟. وكم كان بين موت  
زُرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام ؟. فإذا استظهرنا الشَّعرَ ،  
وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام ، وإذا  
استظهرنا بغاية الاستظهار فماتني عام .

هذه الأبيات قالها امرؤ القيس بعد يوم "الكلاب الأول" <sup>(١)</sup> بين  
عميه سلمة وشرحبيل ، اللذين تفاقم بينهما الشرَّ بسبب التباعد  
والتحاسد ، نتيجة دسائس المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فجمع  
كل واحد منهما الجموع لأخيه ، وزحف إليه بالجيوش حتى التقوا  
على ماء يقال له "الكلاب" فاقتتل القوم قتالا شديدا ، فلما كان آخر  
النهار خذلت بنو حنظلة من تميم بقيادة عُدس بن زيد وحميري بن  
رياح شرحبيلًا وفروا عن القتال فانهزم شرحبيل ومن معه ، وقتل  
شرحبيل قتله رجل من تغلب يقال له "أبو حنش" وبعث برأسه إلى  
سلمة .

ولما قُتل شرحبيل طمعت بنو حنظلة من تميم في ماله وعياله ،  
فقامت بنو عوف بن سعد بن تميم بقيادة عوير بن شجنة دون مال  
شرحبيل وعياله وحالوا بين بني حنظلة وبينهم ، ودافعوا عنهم حتى  
ألحقوهم بقومهم وأمنهم في نجران ، فأثنى امرؤ القيس على عوير  
وقومه بني عوف ، وعرض ببني حنظلة ، وخص بالذم سيدي بني  
حنظلة عُدس بن زيد وحميري بن رياح لخذلاتهم عمه شرحبيل ،  
وموقفهم الشائن من بنيه وأهله وعياله وماله وممتلكاته .

(١) ينظر أيام العرب في الجاهلية (٤٦-٥٠) والعقد الفريد  
(٢٢٢/٥-٢٢٣) .

وقد صور امرؤ القيس في شعر آخر له موقف بني عوف وموقف بني حنظلة من عمه شرحبيل وماله وعياله فقال [٥٧ : ٢٣٥] :

أَحْنِظِلْ لَوْ حَامَيْتُمْ وَصَبَرْتُمْ  
أَلَا إِنَّ قَوْمًا كُنْتُمْ أَمْسِ ذُوئِهِمْ  
ثِيَابَ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى بَيْتِهِ  
عَوِيرٌ وَمِنْ مِثْلِ الْعَوِيرِ وَرَهْطُهُ  
هُمْ أَبْلَغُوا حَيَّ الْمُضَلَّلِ أَهْلَهُمْ  
فَقَدْ أَصْبَحُوا وَاللَّهِ أَضْفَاهُمْ بِهِ  
لَا تَنْتَبِثُ خَيْرًا صَالِحًا وَلَا رِضَانًا<sup>(١)</sup>  
هُمْ اسْتَنْقَلُوا جَارَاتِكُمْ آلَ عُذْرَانٍ  
وَأَوْجَهْتُمْ عَقْدَ الشَّاهِدِ غُرَانٍ  
وَأَسْعَدَ فِي لَيْلٍ الْبَلَابِلِ صَفْوَانٍ  
وَسَارُوا بِهِمْ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَتَجْرَانٍ  
أَبْرَ بِمِثْلِاقٍ وَأَوْفَى بِجِيرَانٍ

لقد أضرب الجاحظ عن مهلهل وشعره وهو أقدم من امرئ القيس سنًا وشاعرية ؛ لأنه وجد بغيته ومراده في تأييد دعواه حداثة ميلاد الشعر ماثلة في هذه الأبيات من شعر امرئ القيس ، حيث إن الرجال الذين ورد ذكرهم في شعر مهلهل ليس لهم شهرة ولا تاريخ متصل إلى الإسلام أو إلى ميلاد النبي - ﷺ - ، بعكس الرجال الذين ذكرهم امرؤ القيس كعوير بن شجنة ، وحميري بن رياح ، وعُدُس بن زيد .

ولما كان حميري بن رياح وعویر بن شجنة معروفين فقط بموقفيهما حيال أهل شرحبيل عم امرئ القيس بعد قتله ، وليس لهما تاريخ متصل أو معروف حتى مولد النبي - ﷺ - ، التفت الجاحظ

(١) هكذا وردت قافية الأبيات في الديوان مطلقة بالكسر ، إلا أن قافية البيتين الثالث والرابع حقها الرفع . ولهذا نرجح أن البيتين الثالث والرابع مقحمان ؛ لأن المعنى واضح بدونهما . ولعل ما دفع الرواة إلى إقحامهما دون أن يلاحظوا اختلاف حركة حرف الروي فيهما هو اتحادهما مع سائر الأبيات في الغرض والوزن والقافية . وقد تكون حركة الروي السكون في سائر الأبيات ، ولكن الضرب (مفاعيلن) في بحر الطويل يدخله القصر وهو حذف ساكن السبب الخفيف وإسكان ما قبله فيصير (مفاعيلن) وهو ما لم يقل به علماء العروض .

ثى غُدس بن زيد وابنه زرارة بن غُدس ؛ لأن زرارة وأبناءه وأحفاده تاريخهم معروف ، ومواقفهم مشهودة فيهم من سادة العرب . وقادتها المشهورين ، وفرسانها المعدودين في الجاهلية والإسلام .  
 فزرارة بن غُدس كان رأس تميم في الجاهلية ، وقائدها في الحروب ووافدها إلى الملوك ، وحاكمها ، ونائبها في عقد الصلح وإبرام العهود والمحالقات واتخاذ التدابير التي تحفظ للقبيلة قوتها وهيبتها وحماية مصالحها .

ثم أن وفاة زرارة كانت قبل مولد النبي - ﷺ - عام الفيل سنة ٥٧٠م بمدة يسيرة ، فقد روت كتب التاريخ والأنساب [٢: ١/٣٣٥] و [١٩: ١٠٠-١٠٦] و [٢٤: ٢٣٢] أن زرارة بن غُدس كان مع عمرو بن هند حين غزا اليمامة في أوائل حكمه سنة (٥٥٤م) ، وأنه مات بعد ذلك بعام أو عامين بعد أن غضب عليه عمرو بن هند لقتل سويد بن ربيعة الدارمي زوج بنت زرارة مالكا - أو أسعد - أخي عمرو بن هند وأصغر أبناء أبيه المنذر بن ماء السماء ، وكان مسترضعا في بيت زرارة ، فأقسم عمرو بن هند ليحرقن من بني دارم مائة رجل ، وكان زرارة حاضرا عنده ، فلما تأكد من غضب عمرو بن هند على بني دارم اتخذ الليل سنارا وجنة ، ودلج هاربا مجدا إلى قومه ، ولم يلبث أن مرض . فند حصرته الوفاة قال لابنه حاجب : ضم إليك غنمتي في بني نهشل ، وقال لابن أخيه عمرو بن عمرو بن عس . عليك بعمرو بن ملقط الطائي فإنه حرص على الملك .

وتلحظ في وصية زرارة أنها خلت من ذكر ولديه معبد ولقيط ، وهما من فرسان العرب وتميم . ومن رجالها المعدودين لأنهما قد ماتا قبل ذلك بمدة يسيرة فمعبد بن زرارة [٤٣: ٥/١٣٩] أسرته بنو عابر في يوم "رحرحان" وغالت في فدائه فترك في أسره حتى مات .

ولقيط أخوه قتل بعده بعام في "يوم شعب جبلة" [٤٣: ١٤١/٥] قتلته بنو عامر حين جمع لها الجموع أخذاً بثئر أخيه معبد . وكان يوم شعب جبلة كما قال أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢١٠هـ) [٤٧: ٩٧٦/٢] قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة ، وقبل مولد النبي ﷺ - بسبع عشرة سنة. وقد ذهب بعض العلماء [٤٣: ١٤١/٥] و[٢: ٢٦٩/١] إلى أن "يوم شعب جبلة" كان قبل الإسلام بأربعين سنة عام ولد النبي ﷺ - والصحيح قول أبي عبيدة لأنه استدل على قوله بقدم عامر بن الطفيل وهو ابن ثمانين سنة على رسول الله - ﷺ - في السنة التي قبض فيها ، وعامر بن الطفيل ولد "يوم شعب جبلة" .

إذن موت زرارة يمكن تحديد زمنه ؛ فمن الثابت من أخبار زرارة أن وفاته كانت بعد أن تولى عمرو بن هند ملك الحيرة سنة (٥٥٤م) ، وأنه لم يمّت كما جاء في بعض الروايات [٤٣: ١٣٩/٥] و [٢: ٣٤١/١] قبل ذلك . ولهذا طلب منا الجاحظ أن ننظر "كم كان بين موت زرارة ومولد النبي ﷺ - ؟" لأنه يعلم أنها مدة وجيزة يمكن حسابها وتقديرها ، فقد ولد النبي ﷺ - عام الفيل سنة (٥٧٠م) ، أي أن بين موت زرارة ومولد النبي ﷺ - مدة لا تتجاوز خمسة عشر عاماً ، فإذا أضفنا إليها أربعين عاماً عمر النبي ﷺ - عليه الصلاة والسلام - قبل البعثة ، يكون بين موت زرارة وبين الإسلام مدة لا تتجاوز خمسة وخمسين عاماً .

ولكن الجاحظ أعنتنا وأتعبنا حين طلب منا أن ننظر كم كان عمر زرارة ؟. لأن ما بأيدينا من أخبار وروايات لا تسعفنا ولا تلقى ضوءاً على مولد زرارة ونشأته وكم عاش من السنين ، وإنما نتحدث عنه بعد أن صار رجلاً معدوداً في قومه وفي العرب ، فهو رأس تميم ، ووافدها إلى الملوك ، وله الوجاهة عند ملوك الحيرة كالمنذر بن ماء

السماء وابنه عمرو بن هند ، وأنهم أصهروا إليه فقد كانت بنت زرارّة عند الأسود بن المنذر بن ماء السماء [٦٦: ٤٠٤] . وزرارة أحد حكام العرب في الجاهلية ، ومن فرساتها الجرّارين ، والرّجل - كما يقول محمد بن حبيب (ت: ٢٤٥هـ) (٢٣: ٢٤٦-٢٤٧) لا يُعدّ جرّاراً حتى يرأس ويقود جيشاً عدته ألف مقاتل .

إن تقدير عمر زرارّة بن عدس ، وكَم عاش من السنين على وجه القطع واليقين، أو على سبيل الظنّ والتقريب أمر شاق وعسير، فليس هناك حادث مشهور نهّدي به في تحديد مولد زرارّة ، ولا يوجد تاريخ مكتوب بسبب أميّة العرب وبدأوتها ، والظاهر من دعوى الجاحظ إلى النظر في عمر زرارّة ، أنه كان يرى أن زرارّة قد عاش مائة عام ، أو أنه كان من المعمرين الذين تجاوزت أعمارهم المائة سنة بكثير ، وعلى هذا قدر عُمر الشّعْر بمائة وخمسين عاماً قبل الإسلام أو مائتي عام على أكثر التقدير .

ولعلّ ما دفع الجاحظ إلى اعتقاد طول عمر زرارّة بن عدس ما رُوِيَ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى [٤٧: ٢٤٥/٥] أن نفراً من وجوه أهل البصرة تفاخروا في مجلس أبي عمر بن العلاء ، وتنازعوا فيمن كان على رأس جيش معدّ يوم خزاز ، فقال بعضهم : كان الرئيس كليب بن وائل ، وقال آخر : كان الأحوص بن جعفر الرئيس ، وقال ثالث ، كان الرئيس زرارّة بن عدس . فلا شك في أن يكون الجاحظ قد سمع هذا الخبر من أستاذه أبي عبيدة ، وعليه عدّ زرارّة من المعمرين ، إذ من المعروف أن يوم خزاز كان قبل حرب البسوس التي نشبت بين بكر وتغلب بأكثر من خمسة عشر عاماً على الأقل ، ولكي يقود زرارّة جيش معدّ في يوم خزاز لابدّ وأن يكون مولوداً حوالي عام (٤٢٥م) حتى يتهيأ له من السنّ والخبرة الحربية ما يؤهّله لقيادة هذا الجيش الذي ضمّ قبائل معدّ كلّها ضدّ مذحج



وملوك حمير من أهل اليمن .

والحق أن زرارة بن عدس لم يكن قائد جيش معدّ في يوم خزاز، فالروايات والأخبار تجمع على أن كليب بن ربيعة التغلبي كان هو القائد والرئيس في ذلك اليوم، ولو كان زرارة هو القائد والرئيس لما سكت عن الفخر بهذا الشرف شعراء تميم وبخاصة الفرزدق .

وليس في أخبار زرارة ما يفيد بأنه كان معمرًا ، أو أنه بلغ مائة سنة أو نحوها ، فأبو حاتم السجستاني (ت: ٢٥٥هـ) معاصر الجاحظ ورفيقه في التلمذة على الأصمعي وأبي عبيدة له كتاب "المعمرون" ذكر فيه أخبارهم وكم عاشوا من السنين ، ولم يعدّ منهم زرارة بن عدس على الرغم من أن أبا حاتم عدّ من المعمرين [٣٥: ٦٧] جروة بن زيد الطائي وله مائة سنة ، وعدّ منهم [٣٥: ٣٥] عمرو بن قميئة وعاش تسعين سنة ، وليس من المعقول أن يغفل أبو حاتم - أو غيره ممن غنوا بأخبار المعمرين<sup>(١)</sup> - عن معمر له مثل شهرة زرارة بن عدس ، علما بأن أبا حاتم أثبت وصية زرارة التي وصّى بها بنيه في كتابه "الوصايا" [٣٥: ١٢٠] . فلو كان زرارة معمرًا لذكره العظماء في المعمرين .

وأما عدس بن زيد والد زرارة بن عدس فأخبره نادرة على الرغم من أنه من سادة تميم في الجاهلية ، ولعل شهرة ابنه زرارة كانت من إحدى العوامل التي غطت على أخباره وشهرته ، ويفهم من ورود اسمه في شعر امرئ القيس أنه كان موجودا بعد سنة (٥٣١م) ، وهي السنة التي عاد فيها المنذر بن ماء السماء إلى ملك الحيرة ، بعد طرد الحارث الكندي جدّ امرئ القيس عنها . وقد حرص المنذر بعد رجوعه إلى ملك الحيرة على القضاء على ملك كندة في بلاد العرب فحرّض القبائل على التمرد والخروج على ملوكها من أبناء

(١) ينظر : المستطرف للأبشيبي : ٣٣/٢ .

الحارث الكندي فخرجت بنوأسد على حُجْرٍ والد امرئ القيس وقتلته، وأخذ المنذر بن ماء السماء يغري بين أولاد الحارث الكندي ففسد ما بينهم ، ودبت بينهم عقارب التحاسد والتباغض كما حدث بين سلمة وشرحبيل ابني الحارث وكان من نتيجة هذا يوم :الكلاب الأول" الذي قُتل فيه شرحبيل .

لقد اعتمد الجاحظ في هذا الدليل على تقدير عمر زرارة بن عدس ، وحساب لعمدة بين وفاة زرارة وبين مولد النَّبِيِّ - ﷺ - ، فقَدَّرَ عُمُرَ الشَّعْرِ للعربي بمائة وخمسين عاما قبل الإسلام أو مائتي عام على أكثر التقدير ، وهو في اعتماده هذا المنهج وذلك الأسلوب الحسابي القائم على تقدير حساب أعمار الرجال القين ورد ذكرهم في شعر امرئ القيس ، متأثرٌ بطريقة معاصره محمد بن سلام الجمحي حين قرَّرَ أن تقصيد القصائد على يد مهلهل بن ربيعة إنما كان على عهد عبد المطلب وأبيه هاشم بن عبد مناف . وبين هاشم وبين مجيء الله سبحانه وتعالى بالإسلام مدة - كما سبق أن بيَّنا - تصل إلى مائة وخمسين عاما أو قريبا من مائتي عام تبعاً لاختلاف العلماء في تقدير عمر عبد المطلب بن هاشم جد النَّبِيِّ - ﷺ - .

وابن سلام لم يكن يقصد البحث في عمر الشعر وإنما كان مقصده بيان الوقت الذي طُوِّلَ فيه الشعر ، وقصَّدت فيه القصائد فهداه علمه بالشعر إلى أن مهلهل بن ربيعة هو أوَّل من قصَّد القصائد وطوَّل الشعر وقبل ذلك كان الشعر أبياتا يسيره يقولها الرجل في حاجته فجاء الجاحظ وأخذ منهج ابن سلام وما أدى إليه من عدد السنين بين مهلهل ومجيء الإسلام ، وطبقه على قضية أخرى هي قضية عمر الشعر نفسه ، متى وكذا ؟ . وعلى يد من نشأ ؟ . فأعلن أن مهلهلا وامراً القيس هما أوَّل من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه ، وعلى ذلك فالشعر صغير السن حديث الميلاد .

ولكي ينفي الجاحظ عن نفسه شبهة الأخذ من ابن سلام ، أو التأثر بمنهجه خالفه في الرجال ، فأضرب عن ذكر عبد المطلب وأبيه هاشم بن عبد مناف ومضى يلتمس دليلا من الشعر نفسه فعثر على ما ظن أنه دليل يقوي ما ذهب إليه ، وكان هذا الدليل أبياتا من شعر امرئ القيس ورد فيها ذكر عدس بن زيد التميمي ، وهو وابنه زرارة بن عدس من رجال العرب المشهورين في الجاهلية ، وكان موت زرارة - كما بينا قبل مولد النبي - ﷺ - بمدة لا تتجاوز خمسة عشر عاما ، وعلى عمر زرارة وعلى ما بين موته وبين مجيء الإسلام بنى الجاحظ رأيه في تقدير عمر الشعر .

والحق أن ابن سلام - مع عدم تسليمنا بما ذهب إليه - كان أوضح منطقاً وأظهر دليلا من الجاحظ فقد اعتمد ابن سلام على تاريخ رجلين هما عبد المطلب وأبيه هاشم ولهما من الشهرة والمكانة ما يقصر عنه تاريخ وشهرة زرارة وأبيه عدس بن زيد ، بالإضافة إلى سهولة تقدير عمرهما ومعرفة فترة ما بينهما وبين الإسلام ، أما عدس بن زيد وابنه زرارة فتقدير عمرهما ومعرفة مدة حياتهما ليس أمرا سهلا ولا ميسورا، وإنما يكتنفه كثير من الغموض، ويلفه كثير من اللبس ، ويحيط به سياج كثيف من الحجب والستور .

وهذا الأسلوب الحسابي في تقدير عمر الشعر اعتمادا على حساب أعمار الرجال الذين ورد ذكرهم فيه ، وصفه المرحوم الشيخ محمود شاكر بأنه [٣٨ : ١٤] : "أسلوب لا يغني ولا ينفع إلا في أمر واحد لا غير ، هو تحديد عمر ما بلغنا من شعر مهلهل وابن أخيه امرئ القيس ، لا أكثر ... وإن ، فقول الجاحظ "إن الشعر حديث الميلاد صغير السن" قضية باطلة لا برهان عليها ، وليس لها دليل ، وهي مقالة لا أصل لها" .

## بيان وإيضاح

ولنا أن نتساءل . ما الذي أوقع الجاحظ في خطأ القول بصغر سن الشعر ، وتحديد مولده بما لا يتجاوز مائة وخمسين عاماً أو مائتي عام قبل الإسلام ؟. وما هو عذره في نفيه تسجيل العرب تاريخهم وعلومهم بالشعر منذ أقدم عصورهم قبل ظهور المهلهل وامرئ القيس ؟. وكيف تسنى له أن يجعل مهلهلا وامراً القيس أول من نهج سبيل الشعر ؟. ألم يسأل الجاحظ نفسه كيف استطاع أن يبدع شعراً على هذه الدرجة العالية من الإبداع والنضج الفني !!؟ ونجيب على هذه التساؤلات فنقول : إن الذي أوقع الجاحظ فيما وقع فيه هو إعجابه بنفسه وزهوه بسعة علمه وتنوع مصادر ثقافته ، وأيضاً منهجه في رواية الشعر ، ونفصل القول في ذلك ونزيده شرحاً وبياناً فنقول :

أولاً : إذا تأملنا منهج الجاحظ في إقباله على الشعر وغرضه من حفظه وروايته نجده مخالفاً منهج وغرض العلماء الرواة في عصره من أمثال أبي عمرو بن العلاء (ت: ١٥٤هـ) ويونس بن حبيب (ت: ١٨٣هـ) والخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢١٠هـ) والأصمعي (ت: ٢١٦هـ) وأبي زيد الأنصاري (ت: ٢١٥هـ) وأبي عمرو الشيباني (ت: ٢٠٦هـ) ومحمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣١هـ) والمفضل الضبي (ت: ١٧٨هـ) وابن الأعرابي (ت: ٢٣١هـ) وغيرهم .

لقد تخصص هؤلاء العلماء في علوم اللغة وأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم وقد شغلتهم العناية بالشعر طوال أعمارهم فتفرغوا لروايته وحفظه ، وتذوقه ونقده ، وكانت همتهم منصرفة إلى الشعر القديم عامة والجاهلي منه بصفة خاصة لأنه في نظرهم الجدير بالحفظ ، المستحق للرواية ، فهو الدليل على عروبة اللغة وصفاتها

ونقائها وبُعدها عن العجمة ، وعدم التأثر برطانة الأعاجم فهو - كما يقول الدكتور شكري عياد - رحمه الله - (ت: ١٩٩٩م) [٥٢: ٢٠٧] : "خير ممثل لما نسميه الآن اللغة الطبيعية" .

ولهذا حرص هؤلاء العلماء على أخذ الشعر عن رواة الثقات من العلماء ورواة الأعراب الذين كانوا يقدون على الحضر ، يقول الجاحظ في حق شيخ العلماء الرواة أبي عمرو بن العلاء [١٦: ١/٣٢٠-٣٢١] : " فأما أبو عمرو فكان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان ، حدثني الأصمعي قال : جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي ... وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس ، ... وكلفت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء ، قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ... وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية" .

وقد رحل معظم هؤلاء العلماء إلى البادية يطوفون بالقبائل ويشافهون الأعراب حرشة الضباب وأكلة اليرابيع يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر ، ثم رجعوا وقد دونوا في صحفهم وألواحهم كل ما سمعوه من الأعراب حرصاً منهم على سلامة اللغة وحفظها نقيّة كما نطق بها أصحابها من العرب الخالص الأقحاح الذين لم تفسد سلاقتهم بالهجنة ، ولم تلتن أسنتهم بمخالطة غير العرب ، فلم يتركوا شعراً أو قصيدة أو مقطوعة أو بيتاً لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجلوه ودوتوه بعد أن تحققوا من صحة نسبة هذا الشعر إلى قائله ، لا يفرقون بين شعر سهل الأسلوب مشرق الديباجة ، وبين شعر غريب اللفظ ، كز الأسلوب ، فلم يفرقوا بين القريض والرجز بل كانت عنايتهم برواية الرجز لا تقل عن عنايتهم برواية القريض ، فالرجز على الرغم من غرابة ألفاظه ووعورة أسلوبه كان في نظرهم

عنوانا على عروبة اللغة ، ودليلا على سلامتها من الهجنة .  
لقد كان منهج هؤلاء العلماء الرواة رواية ما اطمأنوا إلى صحته  
من شعر العرب القديم وحفظ ما صحت نسبته إلى قائله ، وأداء كل  
ما حفظوه وما رووه إلى معاصريهم من طلاب العلم والأجيال من  
بعدهم أداء أمينا ، وكانت عنايتهم برواية الشعر قريضة ورجز  
موجبة إلى التعرف على صحيح اللفظ وصحيح معناه ، واستخلاص  
قواعد اللغة نحوا وصرفا ودلالة من متونها الشعرية ، أو الاستشهاد  
بهذه الأشعار على صدق خبر من أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ،  
يدفعهم إلى كل هذا غاية سامية ، وهدف نبيل هو الحرص على  
عروبة اللغة وبقائها قوية أمام لغات الأمم التي دخلت في الإسلام  
كالفرس والهنود والمصريين وغيرهم من الأمم التي كانت قبل  
إسلامها تتكلم بلغات شتى ، وأيضا يدفعهم رغبة صادقة في خدمة  
ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف حتى لا تستغلق دلالة  
ألفاظهما على أفهام الناس .

وأما الجاحظ فقد كان أدبيا منهوما إلى شتى العلوم والمعارف  
والثقافات ، حريصا على التزود من كل فروع العلم وفنون المعرفة  
في عصره ، فاطلع على علوم الهند وفلسفة اليونان وأساطير الفرس  
، وتزود بعلوم العرب وثقافتهم الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية  
أخذا يطرف من فكاهات الأعراب ، وبلاغات الخطباء ، ومنتقيات  
الشعر ، مشاركا فيما يموج به المجتمع من مناظرات بين أصحاب  
الفرق والأهواء ، وما يدور من محاورات بين أرباب الملل والنحل ،  
فلم يتفرغ لرواية الشعر القديم ولم يرحل إلى البادية لجمعه ، أو  
الانقطاع لروايته والتوفر على دراسته ، وإنما أخذ عن معاصريه  
من عتماء اللغة الرواة ، كما أخذ عن الأعراب الذين وفدوا إلى  
سوق المربد في البصرة ، ولم يقتصر على رواية الشعر القديم

فحسب وإنما روى للقدماء والمحدثين والمولدين من شعراء عصره منتقيا من أشعارهم ما يروقه ويعجبه ، مدفوعا إلى هذا بذائقته الأدبية ونزعة الفنية التي جعلته يرى الشعر مستودعا لطريف المعاني ، وذخيرة يستمد منها معارفه وثقافته ، ويقتبس منها أساليبه وصوره وألوانه اللغوية .

إن الجاحظ لم يكن عالما لغويا متوفرا على رواية الشعر منقطعا لدرسه وفحصه وشرح ألفاظه ومعانيه بهدف معرفة اللغة واستخلاص قواعدها ، وإنما كان أديبا يتعامل مع اللغة ، يستهويه منها ما يعينه على التعبير عن حاجات نفسه ومكنون ضميره مصوغا في قوالب فنية جيدة السبك ، أنيقة العبارة ، عذبة الألفاظ ، رشيقة الأسلوب ، حافلة بالصور والألوان اللغوية التي تدهش القارئ ، وتستولي على فكره ورؤعه ، وقد أثرت نزعة الفنية على منهجه في رواية الشعر ، فكان منهجه - كما هو واضح من الأشعار التي تحفل بها كتبه - قائما على الانتقاء والاختيار استجابة لذوقه الأدبي وخضوعا لنزعة الفنية ، فلم يرو من الشعر - قريضه ورجزه - إلا ما عذب لفظه ، وأشرق أسلوبه ، وصفت ديباجته ، واشتمل على طريف المعاني وبيع الصور دون نظر إلى قائله أو زمنه ، فروى للفقول المشهورين ، والمغمورين غير المعروفين ، والقدماء والمحدثين ، والعرب الأقحاح والمولدين .

وقد ظهر أثر هذه النزعة الفنية واضحا جليا فيما اختاره من شعر أودعه كتاب "الحيوان" فعلى الرغم من أن الكتاب يتناول موضوعات ومعارف ونظريات علمية متصلة بالحيوان ، إلا أن الجاحظ قد أبرزها في صورة أدبية من اللفظ المتخير ، والعبارة السهلة ، والأسلوب الفني الرائع الذي لم تستطع أن تغلبه أو تغطي عليه الروح العلمية المحققة ، وكان من أهم عوامل تلك الروعة

الفنية التي امتاز بها أسلوب الجاحظ في هذا الكتاب ما تمثل به من شعر عذب الألفاظ سهل الأسلوب، ورجز حضري الروح، حضري الفن، متخذاً منهما شاهداً على فكرة، أو دليلاً على معنى طريف، أو مؤكداً على خلق أو سلوك في الإنسان أو الحيوان.

ولاختلاف منهج الجاحظ وغايته من رواية الشعر مع منهج وغاية علماء اللغة الرواة شنّ عليهم الجاحظ حرباً شعواء اتهم فيها أئمة علماء اللغة كالأصمعي والأخفش وأبي عبيدة بجهل علم الشعر فقال [٣١: ١٠٥/٢]: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فحطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب: كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات".

ووصمهم بالافتقار إلى الحس الجمالي اللغوي الذي يستشرف مواطن الجمال في التعبير الشعري مفضلاً عليهم رواية الكتاب وحذاق الشعراء فقال [١٦: ٢٤/٤]: "ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل. ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يفقهون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والدباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقدام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني. ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواية الكتاب أعم، وعلى السنة حذاق الشعراء أظهر".



ونعى عليهم استهانتهم بشعر المحدثين ، وازدراء من يرويه ، مفضلين عليه شعر القدماء ، وعلل ذلك بأنهم غير بصراء بجوهر الشعر ، لا يعرفون جيده من رديئه فقال [١٧ : ١٣٠/٣] : "وقد رأيت ناساً منهم (أي من علماء اللغة) يبهرجون أشعار المولدين ، ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي ، ولو كان له بصير لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان ."

فالجاحظ - كما تؤكد أقواله - لم تكن علاقته بالشعر علاقة الرأوية المستقصي الحريص على حفظ كل ما يسمع من الشعر ، ورواية كل ما يصل إليه منه سواء في ذلك شعر القدماء وشعر المحدثين ، وإنما كان ينتقي ما يروقه ويروي ما يعجبه مفضلاً بنوقه الأدبي ونزعة الفنية شعر المحدثين والمولدين على كثير من شعر القدماء جاهليين وإسلاميين ، ولم يكن إقباله على رواية الشعر إقبال العالم المتخصص المتوفر على دراسة الشعر وبخاصة القديم منه بغرض وضع قواعد اللغة وتفسير غريبها ، وتصحيح أخبار العرب اعتماد على شعر شعرائها كما فعل هؤلاء العلماء الرواة القين ذم منهجهم وعاب طريقتهم ووصمهم بالجهل بعلم الشعر ومعرفة سره وجوهره ولو أنصف الجاحظ وكبح جماح خيالاته وإعجابه بنفسه ، لعلم أن هؤلاء العلماء بروايتهم الشعر القديم وشرح ألفاظه وتفسير غريبه ، ووضع قواعد اللغة مهتدين بأساليبه قد قدموا أجل خدمة تقدم لهذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة التي اختارها المولى عز وجل واختصها دون سواها من اللغات لتكون لغة كتابه العزيز وقرآنه المجيد .

لقد تجنّى الجاحظ على هؤلاء العلماء الرواة حين وصمهم بالافتقار إلى الحسن الجمالي اللغوي ، ونفى عنهم العلم بسر الشعر

والبصر بجوهره ، وعدم القدرة على تمييز جيده من رديئه ، وهم أساتذته الذين جلس إليهم وسمع منهم وأخذ عنهم الشعر واللغة ، فهو وأصحابه من أدباء الكتاب وحذاق الشعراء إحدى الثمار الناضجة الطيبة التي تغذت بعلم هؤلاء العلماء ، واستفادت من جهودهم المباركة .

حقاً قد يكون بعض ما رواد هؤلاء العلماء وما درّسود تلاميذهم من شعر القدماء ممّا لا يعذب على الألسنة ، ولا يروق سامعه لغزابة ألفاظه ووعورة أساليبه وصعوبة فهم معانيه ليدأوة صورته وتشبيهاته ، ولكن مراد هؤلاء العلماء من رواية مثل هذا الشعر وتلقيه طلابهم لم يكن بغرض التنبيه على أن هذا الشعر هو المثال الذي يجب أن يحتذيه الشعراء وينسجوا على منواله ، وإنما كان غرضهم بيان ما فيه من لغة ونحو وصرف ، أما ما عدّوه القدوة والمثال الذي يجب أن يحتذيه شعراء عصرهم فكان شعر الفحول من أهل الجاهلية والإسلام ، ولهذا جمعوا لشعراء عصرهم عيون الشعر العربي ، وقدمود لهم في مجموعات كالمفضليات والأصمعيات وفي دواوين فحول الشعراء ودواوين القبائل ، ولم يقدّموا كل ذلك إلى تلاميذهم غفلاً من الشرح والتفسير ، وإنما عنوا بتفسير ما يحتاج إلى بيان معناد من الألفاظ والعبارات ، فما من قصيدة أو مقطوعة إلا شرحوا ألفاظها وفسروا معانيها باثني في ثنايا ذلك ملاحظات نقدية دقيقة ، تكشف عن سر جمال هذا الشعر ، وتدل على مظاهر الجمال فيه ، فانقادت اللغة وسلسلت لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء ، كما ترجموا لأصحاب هذا الشعر ونبهوا على أسمائهم وأسماء قبائلهم ، وعرضوا لما مرّ بهم من أحداث الحياة التي كان لها تأثير كبير على إبداعهم الفني وتوجيههم الشعري . فكانت هذه النلمحات النقدية المتصلة بالشعر والشعراء هي الأساس الذي بُني عليه النقد

العربي الذي عني بفن الشعر وجماله المتنوع الذي لا ينضب معينه .  
لقد تحمل هؤلاء العلماء الرواة مشاق الرحلة إلى البادية ،  
وصبروا على قسوة العيش فيها يحدوهم هدف نبيل وغاية سامية  
ومقصد سني هو خدمة لغة القرآن الكريم ، فمضوا يجمعون اللغة  
ويحفظون الشعر القديم عامة والشعر الجاهلي خاصة ، وأفنوا  
أعمارهم في العناية به ، والانتفاع له ، والتوفر على دراسته  
وتصحيح ما اتصل به وبقائليه من روايات وأخبار ، وقد أثمرت  
جهودهم ثمارا علمية مباركة ، فدوتوه في كتبهم وسجلوه في  
صحفهم فحفظوه بهذا من الضياع والاندثار ، وكان من نتيجة توفرهم  
على درسه وفحصه أن بينوا صحيحه من منحوه استنادا إلى ما  
عرفوه من طبيعة الأماكن التي مروا بها في البادية ، وعلمهم بطباع  
ساكنيها وما مرّ بهم من وقائع وأحداث ، ثم إنهم اعتمدا على  
أذواقهم السليمة ، وملكاتهم النقدية الأصيلة ، وبصرهم بمكنون  
جوهر الشعر وفهم أسرار لغته اهتموا إلى التمييز بين أساليب  
الشعراء ومذاهبهم الفنية وطرائقهم في التعبير والتصوير ، ونبهوا  
على ما فيه من مواطن الجودة والحسن ، وأشاروا إلى مواضع  
الرداءة والقبح ، وقدموا كل هذه الجهود لنائشة عصرهم من الأدباء  
كتابا وشعراء ، فكان عملهم هذا أقرب إلى المفهوم الشامل للنقد .

إن هؤلاء العلماء الرواة المعاصرين للجاحظ كانوا أكثر منه صلة  
بالشعر الجاهلي ، وأشد منه تحققا بدراسته ، وأبلغ منه نفاذا وثبتا  
في روايته وفحصه ، ورغم ذلك لم يقولوا كما قال الجاحظ "إن الشعر  
صغير السن..." لعلمهم عراقة الشعر العربي وقدم أصوله ، وأنه  
ضارب بجذوره في أعماق أعماق تاريخ العرب ، ولم يقولوا إن  
مهلهلا وامراً القيس هما أول من سهل الطريق إلى الشعر كما زعم  
الجاحظ ، لمعرفتهم بأنهما مسبوقان بكثير من الشعراء أقدم منهما

زمننا مهتدوا طريق الشعر وعبدوه لهما ولمن عاصرهما ولمن يأتي بعدهما من الشعراء ، ولكن شعرهم عدت عليه عوادي الزمن فنسي وضاع معظمه ، ولم يبق منه في أيدي الرواة إلا أقل القليل متمثلاً في أبيات متفرقة ، ومقطوعات قصيرة .

وقد نبه على هذا شيخ العلماء الرواة أبو عمرو بن العلاء فقال [٢١: ٢٥/١] : "ما انتهى إليكم ممّا قالت العربُ إلا أقلّه ، ولو جاءكم وأفرا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ" ، ومن العجيب أن الجاحظ نفسه مقرر بهذه الحقيقة ، معترف بأن ما بقي من الشعر القديم لا يمثل إلا قدراً ضئيلاً من تراث العرب الشعري فقال [١٨: ٢٥٤/٣] : "وما ضاع من كلام الناس وضلّ أكثر ممّا حفظ وحكي" . فكيف غابت هذه الحقيقة عن فكر الجاحظ وعقله وهو يصوغ دعوى صغر سن الشعر وأن عمره لا يتجاوز مائتي عام قبل الإسلام !!! ولكن الجاحظ ومن حذا حذوه ظن أن العرب لم يعرفوا من الشعر قبل امرئ القيس ومهلل سوى هذه الأبيات والمقطوعات التي بأيدي الرواة ، ولو كان له علم بالشعر الجاهلي مثل علم هؤلاء العلماء الرواة لأدرك أن الشعر العربي قبل مائتي عام على مجيء الإسلام لم يكن صغير السن حديث الميلاد وإنما كان شاباً فتياً وفناً ناضجاً .

ثانياً : كان من نتيجة ازوار الجاحظ عن رواية الشعر المتصل بحياة العرب وأخبارهم وأيامهم وأنسابهم أن ذهب إلى القول بأن العرب لم يسجلوا تاريخهم بالشعر قبل مهلّل وامرئ القيس ، وهو قول مناف للحقيقة ولا يؤيده تاريخ الشعر العربي ، ولا يسنده ما عُرف عن حياة العرب منذ أقدم العصور ، فحياتهم لم تكن هائلة ولا وادعة ، وإنما كانت حافلة بالحروب والغارات ، ومثل هذه الحياة تدفع أصحاب المواهب الشعرية إلى تسجيل بواعث هذه الحروب ، وبيان أسبابها ، والإشادة ببطولة فرسانها ، والإشارة إلى ما انتهت

إليه من انتصارات وانكسارات . فالشعر كما قال الأصمعي [٥٩ : ٦٢] : " نكذّ بابيه الشرّ " . ويكثر كما قال ابن سلام [٢١ : ٢٥٩/١] : " بالحروب التي تكون بين الأحياء،... أو قوم يُغيرون ويُغار عليهم " . إن من يطالع كتب التاريخ والوقائع والأيام يجد ذكرًا لكثير من الحروب التي شجرت بين القبائل والبطون والعشائر من أولاد معدّ بن عدنان ، ويجد ذكرًا لكثير من الوقائع والحروب التي نشبت بين قبائل معدّ وبين قبائل اليمن ، وكثير من هذه الحروب كانت قبل مهلهل وامرئ القيس ، بدهور وأحقاب وقد حفلت هذه الكتب بالأشعار التي صورت هذه الحروب وسجلت بطولة فرسانها وأبطالها ، وبينت أسبابها وبواعثها .

فأول حرب وقعت بين أبناء معدّ بن عدنان كانت الحرب التي نشبت بين أبناء نزار بن معدّ وبين أبناء قضاعة بن معدّ وقد ذكر الأصفهاني [٤ : ١٣/٧٨-٨٠] أخبار هذه الحرب فقال : إن سببها قتلُ حزيمة بن نهد القضاعي والد معشوقته فاطمة بنت يذكر بن عنزة بن ربيعة بن نزار<sup>(١)</sup> ، فتجمع أبناء نزار وقاتلوا قضاعة أشدّ قتال فهُزمت قضاعة وقُهرت ، فتركت مساكنها في غور تهامة حيث كانت تقيم مع سائر أولاد معدّ ورحلت إلى الشمال ، ففترقت في بلاد نجد والشام .

والى هذه الحرب يشير عامر بن الظرب العدواني وهو بعد حزيمة بن نهد - الذي بسببه قامت الحرب - بجيلين فقط وأقدم من مهلهل بن ربيعة بزمان طويل<sup>(٢)</sup> فيقول :

---

(١) سبق عند حديثنا عن أزمان قدامى الشعراء قبل مهلهل أن أشرنا إلى شعر حزيمة الذي شبب بها فيه ، وإلى شعره الذي صرّح فيه بقتل والد معشوقته فاطمة .

(٢) بين حزيمة بن نهد وبين معدّ بن عدنان "٧" أباء. وبين عامر =

فَضَاعَةَ أَجَلَيْنَا مِنَ الْغُورِ كُلِّهِ      إِلَى قَلْبَاتِ الشَّامِ تُزْجِي الْمَوَاشِيَا  
وَمَا عَنْ تَقَالٍ كَانَ إِخْرَاجًا لَهُمْ      وَلَكِنْ عَمُوقًا مِنْهُمْ كَانَ بِأَدْيَا  
بِمَا قَدَّمَ التَّهْدِي لَا دَرْدَرَهُ      غَدَاةَ تَمْتَلِي بِالْحِرَارِ الْأَمَانِيَا

وتحفل مقدمة كتاب "معجم ما استعجم" [١١: ١٩١-٨٩] لأبي عبيد البكري (ت: ٤٧٨هـ) بذكر الحروب التي نشبت بين أبناء معدّ وأدت إلى تفرقهم ، وما قيل في هذه الحروب من شعر ، سواء كان هذا الشعر لفرسان هذه الحروب أو لشعراء يفخرون بما كان لقومهم من انتصارات وأمجاد .

ومهلل بن ربيعة نفسه يذكر ما وقع بين أبناء معدّ من حروب فرقتهم وشنت شملهم بعد أن كانوا مجتمعين في دارهم تهامة فيقول [١٣: ٦٨]:

غَنَيْتَ دَارَنَا تَهَامَةً فِي اللَّافِ      رَوَيْهَا بَنُو مَعَدٍّ حُلُولَا  
فَتَسَاقُوا كَأَسَا أَجَرَّتْ عَلَيْهِمُ      بَيْنَهُمْ يَقْتُلُ الْعَزِيزُ الدَّيْلِيلَا

والجدير بالذكر أن أبا الفرج الأصفهاني وأبا عبيد البكري وغيرهما ممن ذكر هذه الحروب القديمة ، وروى ما قيل فيها من أشعار قد أخذ ذلك كله من كتب أبي عبيدة معمر بن المثنى وهشام بن محمد الكلبي وهما من أساتذة الجاحظ الذين جلس إليهم ، وسمع منهم ، وأخذ عنهم ، بل إن معاصري الجاحظ كعمر بن شبّة (ت: ٣٦٢هـ) وأبي حاتم السجستاني قد أشارا إلى أخبار هذه الحروب وما قيل فيها من الشعر ، فلأبي حاتم كتاب "المعمرون" ذكر فيه أخبار كثير من معاصري الجاهلية الأولى وروى بعض أشعارهم التي صوروا فيها حياتهم وما كانوا عليه من قوة وشجاعة وفروسية في شبابهم ، وعبروا بها عن حالهم ونفسياتهم وما يعانون

=ابن الطرب وبين معدّ بن عدنان "٩" أبناء . أمّا مهلهل فبينه وبين معدّ ثمانية عشر أبا . ينظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم بتحقيق عبد السلام هارون الطبعة الرابعة ص ٤٤٦ ، ٢٣٤ ، و ٣٠٥ .

من ضعف ووهن في شيخوختهم ، باثين في ثانيا ذلك خلاصة تجاربهم في الحياة ، وما استفادوه في رحلة حياتهم الطويلة من حكمة وسداد رأي .

ثالثا : وبعيدا عن الحروب والصراعات وما تدفع إليه من قول الشعر ، فإن حياة العرب ، وخصائصهم النفسية ، وطبيعة لغتهم كل هذا من أقوى العوامل والأسباب التي تجعل العرب يقولون الشعر منذ أقدم عصورهم ، فالعربي منذ أقدم العصور يعيش في صحراء واسعة الجنبات ، مترامية الأطراف ، قليلة الوفاء بمتطلبات الأمن والعيش ، فهو دائما مجبر على التحصن ضد الأعداء من أنس ووحش ، وتوقي الظواهر الطبيعية من رياح وعواصف وحرارة وجفاف ، وهو مضطر إلى الترحل الدائم والتنقل المستمر دون كلل أو ملل طلبا للماء والعشب والكأ ، ومثل هذه المعيشة تجعل صاحبها في حالة من التوتر الدائم ، والتحفز المستمر ، وتدفعه إلى التنفيس عن نفسه ، والتعبير عن مشاعره ، والتغني بآماله وآلامه ، وتصوير عواطفه وأحلامه كلما جن عليه الليل ، أو أجهدته العمل الشاق ، أو امتد به الطريق ، وأنهكتة الرحلة وأتعبه المسير ، أو حين يخيب أمله أو يظفر ببغيته من الأمن وأسباب العيش ، مصورا كل هذا في كلمات ذات أنغام شجية ، وعبارات ذات موسيقى عذبة تجذب الأسماع ، فتنشط لها النفوس ، وترتاح إليها الأفئدة .

إن الشعر في حقيقة أمره من الشعور ، وهو في أساسه مناجاة يناجي بها الشاعر نفسه ، مترجما عن مشاعره وعواطفه ، وما يعتريه من رجاء وأمل وحب وبغض ، واضطراب وأمن ، وقد ساعدت اللغة العربية - لغناها بكل عناصر التركيب الموسيقي - أبناءها من أصحاب الطبيعة الفنية والسليقة الشعرية ، فسالت على أنسنتهم منذ أقدم العصور شعرا عذبا . وتدفقت على أفواههم أنغاما

شجيرة . لأنها في أصل مبناها وتكوينها لغة غنية بكل عناصر الإيقاع والتركيب الموسيقي ، فهي كما وصفها المرحوم عباس محمود العقاد (ت: ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م) [٥٠ : ٩] : "لغة شاعرة بُنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية ، فهي في جملتها فنّ منظوم منسق الأوزان والأصوات ، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء" .

ويقول - رحمه الله - [٥٠ : ٣٤-٣٥] : " التركيب الموسيقي أصل من أصول هذه اللغة لا ينفصل عن تقسيم مخارجها ، ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها ، ولا عن دلالة الحركات على معانيها ومبانيها بالإعراب أو بالاشتقاق . وهذا السبب الشامل هو الذي يستر النظم المطبوع لأصحاب السليقة الشعرية من الناطقين باللغة العربية منذ أقدم عصور الجاهلية إلى هذه الأيام ، فإن الشاعر المطبوع ينظم الأشعار في بحورها المتعددة بغير حاجة إلى علم يدرسه ويستهدى به غير سليقته الفنية ... ولولا جريان اللغة في ألفاظها وتراكيبها على السليقة الموسيقية لما تيسر ذلك للشاعر الجاهلي ، ولا للزجال الأمي في هذه الأيام" .

وقد كان الجاحظ عالماً بكل ما ذكرنا عن طبائع العرب ومعيشتهم وخصائص لغتهم وعبر عنه أحسن تعبير وأوضحه فقال [١٦ : ٢٨/٣] : " وكل شيء للعرب [يعني الخطب والأشعار] فإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجلالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحذو ببعير ، أو عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنتال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم



لا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَا يُدْرِسُهُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ ، وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ ، وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ ، ... فَلَمْ يَحْفَظُوا إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ ، وَالتَّحَمَّ بِصُدُورِهِمْ ، وَاتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ ، مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا قَصْدٍ ، وَلَا تَحْفَظَ وَلَا تَطْلُبُ .

ويقول [١٦ : ٦/٣] : " إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَسَاجِلُونَ الْخُصُومَ بِالْمُوزُونِ وَالْمُقَفَّى ، وَالْمَنْثُورِ الَّذِي لَمْ يُقَفَّ ، وَبِالْأَرْجَازِ عِنْدَ الْمَتَجِّ ، وَعِنْدَ مُجَاثَاةِ الْخَصْمِ ، وَسَاعَةِ الْمَشَاوَلَةِ ، وَفِي نَفْسِ الْمَجَادَلَةِ وَالْمَحَاوَرَةِ ، وَبِالْأَسْجَاعِ عِنْدَ الْمَنَافَرَةِ وَالْمَفَاخِرَةِ ، مَعَ تَرْكِ اللَّفْظِ يَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهِ وَعَلَى سَلَامَتِهِ ، حَتَّى يَخْرُجَ عَلَى غَيْرِ صَنْعَةٍ وَلَا اجْتِلَابِ تَأْلِيفٍ ، وَلَا التَّمَاسِ قَافِيَةٍ ، وَلَا تَكْلُفٍ لَوْزَنِ .

تلك هي طبيعة العرب منذ أقدم عصورهم ، كما صورها الجاحظ بقلمه وبيانه ، وأسلوبه الرشيق ، وهذا يوحى بحق أن البديهة الشعرية سمة عامة يكاد يتصف بها كل العرب الجاهليين منذ أقدم العصور . فهل بعد هذا الذي ذكره الجاحظ من علمه بحياة العرب وطباعهم ونفسياتهم ، وتمكنهم من التعبير والتّصوير عن كل ما يتصل بمشاعرهم وعواطفهم وشؤون حياتهم يوجد من عذر نلتسمه له في نفيه الشعر عن العرب قبل مهلهل وامرئ القيس ، وادّعائه صغر عُمر الشعر وحدائه ميلاده !!! .

رابعاً : إِنَّ الْجَاحِظَ لَوْ سَأَلَ نَفْسَهُ كَيْفَ تَسْنَى لِمَهْلَهْلٍ وَامْرِئِ الْقَيْسِ أَنْ يُدْعَا شِعْرًا نَاضِجًا فَنِيًّا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي عَلَيْهِ شِعْرُهُمَا دُونَ أَنْ يَتَتَلَمَّذَا عَلَى شِعْرِ سَبْقِهِمَا لَعَلِمَ فُسَادَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَلَأَدْرَكَ أَنَّ ذَلِكَ مُخَالَفٌ لَطَبِيعَةِ الشَّعْرِ ، وَمَنَافٍ لِحَقِيقَتِهِ كَظَاهِرَةِ فَنِيَّةٍ .

إِنَّ الشَّعْرَ كَظَاهِرَةِ فَنِيَّةٍ شَأْنُهُ شَأْنُ سَائِرِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالصَّنَاعَاتِ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْرَزَ كَامِلَ النَّمُو ، تَامَ التَّكْوِينِ وَالنُّضْجِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ فُجْأَةً عَلَى هَذَا النُّضْجِ الْفَنِيِّ فِي

شعر مهلهل وامرئ القيس بين عشية وضحاها ، وإنما يحتاج -  
 كسائر العلوم والفنون - حتى ينمو وينضج إلى مران طويل ،  
 وتجارب متعدّدة على أيدي أصحاب المواهب الفنيّة والسليقة الشعريّة  
 ، والملكات التعبيريّة القادرة على تطويع اللغة للبيان عن خواطرهم ،  
 والتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم في أسلوب فنيّ وتعبير شعري  
 موزون مقفّ ، وهذا لا يتمّ في زمن واحد ولا على يد جيل واحد ،  
 وإنما يتمّ في أزمان متعدّدة ، وعلى أيدي أجيال متعاقبة ، يستفيد  
 فيها كل جيل من خبرات السابقين عليه ، متمثلاً تجاربهم الشعريّة ،  
 مضيفاً إليها من ذات نفسه وتجاربه الشخصية ، فيأتي عمله نتيجة  
 ثقافة فنيّة واسعة ، وموهبة أصيلة قادرة على التجديد والإضافة إلى  
 جهود السابقين ، ممّا يمنح عمله صفة الأصالة والجودة .

يقول الدكتور البهيتي [١٢ : ٦١] : "التّلازم الوثيق بين نفس  
 الشّاعر العبقرّي وموضوعه ، واستغراق الحالة التي يصفها لجماع  
 قلبه ، يترك أثراً غير شعوري في ألفاظه وفي تكيف موسيقاه ، إلّا  
 أن ذلك كله لا يتأتّى للغة إلّا بعد مرورها حقبا طوالا في أطوار من  
 النمو والاكتمال ترسّب بها في النفس قيما خاصّة ، وتطلّ بها مختزنة  
 ، تطفو على سطحها وقت الحاجة . وما مقييس الصناعة الفنيّة إلّا  
 مجموع ما تفضي إليه هذه التجارب الأدبيّة ، يجمعها المتأخرون بعد  
 استقرائها في آثار المتقدمين" .

ويقول المستشرق "جويدي" ( Guidi ) [٤٠ : ١٤] : "إن قصائد  
 القرن السّادس الميلادي تنبئ بأنّها ثمرة صناعة طويلة" . وما لاحظته  
 هذا المستشرق حقّ لا شكّ فيه فشعر شعراء هذا القرن وأولهم  
 مهلهل وامرؤ القيس به من النّضج الفنّي والتّجويد الشعري ما يؤكّد  
 أنّهما ورثا تراثا غنياً من شعر السّابقين ، وأنهما تتلمذا على هذا  
 التّراث الشعري واستفادوا منه وتأثرا به فحدّوا حذوه ونسجا على

منواله ، وأنّ هذا التُّراث الشَّعري لم يكن لشعراء غير قادرين إلاّ على قول البيت أو البيتين أو المقطوعات ذوات العدد القليل من الأبيات على النحو الَّذي وصلنا من شعرهم ورواه الرُّواة لهم ، وإنّما كان تراثاً شعريّاً ضخماً لشعراء مجيدين قادرين على تقصيد القصائد وتطويل الأشعار .

ويقول "كارل بروكلمان" ( Charl Brocklmann ) [ ٩ : ١ / ٤٤ ] :  
"كان شعر العرب فناً مستوفياً لأسباب النُّضج منذ ظهر العرب على صفحة التَّاريخ" . والعرب الذين يشير إليهم "بروكلمان" هم عرب الشَّمال ، وصفحة التَّاريخ التي يعنيها هي النِّصف الثَّاني من القرن الخامس الميلادي ( ٤٥٠ - ٥٠٠ م ) . ففي السنوات الأولى منه كان "يوم خزاز" الَّذي توحَّدت فيه قبائل معدّ (عرب الشَّمال) تحت لواء كليب بن ربيعة التَّغَلبيّ وقاتلوا مذحج وحمير وملوك اليمن فهزموهم وانتصروا عليهم ، وبانتصار عرب الشَّمال في "يوم خزاز" حرَّروا أنفسهم من سيطرة ملوك حمير واليمن ، وأحرزوا منهم أموالهم فامتنعوا عن دفع الإتاوة التي كانوا يدفعونها إليهم ، ولاتخاذهم شعوراً بقوتهم فوقوا شامخين أمام ملوك الدُّول المجاورة كاليمن والمناذرة والغساسنة ، وبلغ بهم الاعتزاز بالنفس حدّاً جعلهم يتحدّون هؤلاء الملوك ويتهدونهم بل ويشنون عليهم الغارات في كثير من الأحيان ممّا دفع هؤلاء الملوك إلى الارتباط مع كثير من قبائل عرب الشَّمال بالعهود والأحلاف .

ولكن اتحاد عرب الشَّمال تحت قيادة كليب بن ربيعة لم يدم طويلاً بسبب زهوه وتجبره ، وبغيه على قومه لما هو فيه من عزّة ، وانقياد معدّ له ، وأيضاً بفعل دسائس ملوك الحيرة الذين هالهم وأفزعهم اتحاد عرب الشَّمال ، هذا الاتحاد الَّذي كان من ثمرته تحرير أنفسهم من سيطرة ملوك اليمن ، فعملوا على تحريض القبائل

بعضها على بعض ، والوقعة بينها ، فاشتعلت الحروب بين القبائل وانقسمت القبيلة الواحدة أقساما ، وتفرقت وحدة العرب وصاروا جماعات تقتتل فيما بينها .

يقول الدكتور البهبهتي [١٢ : ٣١] : "والقارئ الناقد للتاريخ الجاهلي يقع في كل خلاف كان بين القبائل العربية في تلك الفترة على أصابع ملوك الحيرة ، ولا يكاد يقلت من ذلك يوم واحد من أيام العرب قبل الإسلام فالقبائل تلتقي وتفترق في هذا السبيل ، والدماء تجري ، والموت يبتلع الناس ابتلاعا . كل ذلك تدفع إليه سياسة التفرقة التي كان يركبها إذ ذاك هؤلاء الملوك" .

فبعد "يوم خزاز" بمدة وجيزة اشتعلت حرب "البسوس" بين بكر وتغلب ابني وائل بسبب قتل جساس بن مرة البكري كليب بن ربيعة التغلبي ، وقد استمرت هذه الحرب - التي بدأت حوالي الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي - أربعين عاما كما يقول الرواة ، كان فارسها ومؤجج نارها بسيفه وشعره مهلهل بن ربيعة طلبا بثأر أخيه كليب . وتزامن معها وتلاها كثير من الحروب التي شغلت العرب وفرقت قبائلها وكان من أشهرها حرب "داحس والغبراء" بين عبس وذبيان ابني بغيض من غطفان ، واستمرت هي أيضا - كما يقول الرواة - أربعين عاما .

وقد سجل الشعراء أحداث هذه الحروب فتركوا لنا سفرا ضخما في تاريخ العرب ، وكان من نتيجة إقبال العرب على حفظ الشعر الذي قيل في هذه الحروب وروايته أن انشغلوا بحاضرهم عن ماضيهم القريب والبعيد ففُطِع ما بينهم وبين هذا الماضي ففسوا أخباره ، وما قيل فيه من الشعر ضاع معظمه لقدم عهده ولموت رواته وحفظته الذين ابتلعتهم هذه الحروب ، ولا اعتماد العرب في الحفظ على ذاكرتهم الإنسانية ، فلم يبق من هذا التراث الشعري الذي

قيل في "يوم خزاز" وقبل "يوم خزاز" سوى أبيات متفرقة ومقطوعات قليلة الأبيات على النحو الذي نراه في مقدمة كتاب "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي وغيره من كتب الأدب والتراجم والبلدان والمواضع .

وقد ذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى أن ابن سلام الجمحي وابن قتيبة وغيرهما من العلماء كانوا يعدّون المقطوعات التي رويت للجاهليين القدماء قصائد صغيرة ناضجة فنيًا ، وأنها الخطوة التي سبقت ومهدت للقصائد الطوال على يد امرئ القيس فقال [٤٨ : ٣٤] : "ومما يدلّ على أنّ هؤلاء العلماء يعدّون المقطوعات مقدّمة للشكل الناضج للقصيدة العربية أنّهم بعد أن قدّموا شواهد هذه المقطوعات أرفوها مباشرة بالحديث عن امرئ القيس الذي يعتبر المثال الكامل للشاعر الذي نضجت على يديه القصيدة العربية ، وسبب عدّهم المقطوعات مقدّمة للقصيدة المتكاملة أنّ هذه المقطوعات تحتوي على أبيات قليلة تدلّ على أنّ صاحبها ليس بطويل النفس ، ليبلغ مرتبة الشاعر الفحل ، كما أنّها بنت السّاعة العاجلة التي لم يفرغ فيها صاحبها للفنّ يجودّه ويتأنّى له ... ولما كانت هذه المقطوعات تامة الأوزان ، مستقيمة الألفاظ والمعاني ، أي أنّها بهذا العرف (قصائد صغيرة) ناضجة فنيًا" .

وقد فات هذا الباحث عدّة أمور:

١ - هذه المقطوعات التي رواها ابن سلام للعرب الأوائل لم يعدّها ابن سلام ولا ابن قتيبة ولا أحد غيرهما من العلماء قصائد صغيرة ناضجة فنيًا ، ولم يصفوا أصحابها بالفحولة أو عدم الفحولة لأنّ الحكم للشاعر بالفحولة كان له عندهم مقاييس عديدة أهمّها كثرة نتاج الشاعر وجودته ، وهو ما لم يتحقّق لأصحاب هذه المقطوعات لضياح جلّ أو معظم شعرهم ، ثمّ إنّهم لم يقولوا إنّ هذه المقطوعات

هي المقدمة للشكل الناضج للقصيدة أو أنها هي التي مهدت لظهور القصائد الطوال على يد امرئ القيس لأنهم كانوا يعرفون كثيرا من الشعراء سبقوا امرأ القيس وكانوا أكبر منه سناً ولهم قصائد طوال كمهلل بن ربيعة وعبيد بن الأبرص وأبي دؤاد الإيادي وعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر وغيرهم ، وأيضاً كانوا على يقين من أن للعرب القدماء قبل مهلهل شعرا كثيرا وقصائد طويلة ، ولكن هذا الشعر وهذه القصائد طوى معظمه أيدي النسيان ، وأن تلك القصائد قد توزعتها ذاكرة الرواة فذهب كل بنصيبه منها ؛ لأن النفس الإنسانية لا تحفظ إلا ما يتفق وحالها ، وهذا هو السبب الرئيس في شيوع المقطوعات فيما وصل إلينا من شعر العرب الأوائل الموعلين في القدم .

لقد كان العرب منذ أقدم عصورهم يحرصون على رواية الشعر وحفظه حرصهم على أعز الأشياء لديهم ، ولكن حفظهم للشعر لم يكن بهدف تسجيله ، وإنما لأنه يصور عواطفهم ونفسياتهم ، فحفظوا منه ما يناسبهم ويتصل بعواطفهم ، مما جعل القصيدة الواحدة موزعة بين عدد من الرواة . يقول الدكتور البهيتي [١٢ : ٤٨] : "كان الناس يحرصون عليه (يعني الشعر) حرصهم على أعز الأشياء لديهم ، وأثمنها في حياتهم ؛ لأن في الشعر تنفيسا عن المكروب ، وغناء للواله ، ولكن ذلك لا يبعد بهم إلى حد الاحتفاظ بالقصيدة كاملة تامة الأجزاء والتفصيل ، وإنما يبقى منها في النفس ما تستبقه النفس مما هو أوثق بحالاتها القائمة بها ، وأصدق تعبيرا عنها ، أما بقية القصيدة مما لا يمت إليها بكبير سبب فليست إليه حاجة ، وهو لذلك أقرب إلى أن يضيع ويذهب . والنفوس مختلفات ، والبواعث على القول والتأمل بالشعر تتباين ... ومعنى ذلك أن المحفوظ من القصيدة قد يختلف باختلاف حالات النفوس ، وباختلاف الأفراد ، وهذا يؤدي

بالقصيدة إلى أن تتفرق بين عدد من الناس، وقد يذهب منها الكثير". وإذا كان ابن سلام لم يرو للأوائل من العرب سوى ما صحّ لديه من مقطوعات فإنّ أستاذه الأصمعي وهو الرواية الثّبت المستقصى في الرواية قد صحّ عنده قصائد تبلغ الواحدة منها ثلاثين بيتاً لشعراء أقدم من مهلهل وامرئ القيس وأسبق منهما بقرون ودهور وهم : ضمرة الكناني ، وذؤيب بن كعب ، والأضبط بن قريع . والأصمعي راوية ثقة وحافظ للشعر لا يشقُّ له غبار شهد له بذلك معاصروه فانقبه الرّشيد الخليفة العباسي (ت: ١٩٣هـ) بشيطان الشعر [١٠٢: ٦]. وعده تلميذه إسحاق الموصلي (ت: ٢٣٥هـ) [٩٨: ٤١]. من عجائب الدنيا المعدودة . وقال في حقّه [٢٩٧: ٥٩] : "ما رأيت أحداً قط أعلم بالشعر من الأصمعي ، ولا أحفظ لجيده ، ولا أحضر جواباً منه ، ولو كنت إنّه لم يك مثله ما خفت كذباً". وهذا ينفي أن يكون الشاعر قبل مهلهل وامرئ القيس لم يكن يقدر إلا على قول البيت أو الأبيات في شأنه وحاجته ، فقد ثبت أن لبعضهم قصائد طويلة، ولكن الرواة غالباً ما أدوا تلك الأشعار بحسب ما حفظوا من القصيدة ، أو بحسب الموقف الذي عرض لهم ، فاخترأوا من أبيات القصيدة ما يوافق الموقف ، فلما استتب الأمر وبدأ عصر الكتابة والتدوين لم يجد الرواة والعلماء سوى الأبيات والمقطوعات التي حفظت من قصائد الجاهليين الأقدمين.

٢- كان غرض ابن سلام من ذكر بعض المقطوعات التي صحت نسبتها إلى قدماء العرب وأوائلهم كأعصر بن سعد ، والعنبر بن تميم ، وذؤيب بن نهد وغيرهم من الشعراء الأقدمين الرّدّ على محمد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ) وغيره ممّن كتبوا في السّير والأخبار شعراً نسبوه إلى رجال ونساء لم يعرف عنهم قول الشعر ولم يرو لهم الرواة المحققون شعراً ، ودحض ما رواه ابن إسحاق من شعر

منسوب إلى عاد وثمود ، وبيان زيفه ووضعه .

لقد أراد ابن سلام من رواية هذه المقطوعات التي صحت نسبتها إلى الأقدمين من شعراء العرب الإشارة إلى أن الرواة المصححين لم يرووا للقدماء قصائد طويلة كما روى ابن إسحاق ، وأيضا أراد أن يبين زيف ما رواه ابن إسحاق وغيره بالموازنة بين ما يروونه من الشعر وبين ما صحت نسبته إلى قائله من العرب الأقدمين فقال [٢١ : ١/١١] : " ولا نجد لأولى العرب المعروفين شعرا ، فكيف بعاد وثمود ؟. فهذا الكلام الواهن الخبيث ، ولم يرو قط عربي منها بيتا واحدا ، ولا رواية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته ... مع تداعيه ووهيه ؟. فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق ، ومثل ما روى الصُحُفِيُّونَ ، ما كانت إليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم " .

إن هذه القصائد والأشعار التي رواها ابن إسحاق وغيره إذا قورنت بالصحيح الثابت من قديم شعر العرب يتضح على الفور زيفها وافتعالها ووضعها لخلوها من روح الشعر وشدة أسره ، وافتقارها إلى طلاوته وصفاء ديباجته ، وعدم دلالتها على حياة العرب ونفسيات قائلها ، ولهذا حكم ابن سلام على ما رواه ابن إسحاق وغيره فقال [٢١ : ٨/١] : " ليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف " .

٣- لقد كان ابن سلام راوية ثقة ، وكان صادقا مع نفسه ومع علمه ومع الناس حين صرح بأنه لم يجد لأولى العرب المعروفين شعرا سوى ما يرويه الرواة المحققون من أبيات ومقطوعات ، ولكنه كان على يقين من أن للعرب الأوائل شعرا كثيرا ، ولكن هذا الشعر وما يشتمل عليه من قصائد ضاع ونسي لقدم عهد أصحابه ، ولموت رواه وحفظته ، وهو وإن لم يصرح بذلك فقد ضرب مثالا على



ضياح كثير من شعر شعراء الجاهلية القريبة من الإسلام كطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وغيرهما فقال [٢١: ٢٦/١]: "ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلّة ما بقي منه بأيدي الرواة المصحّحين لطرفة وعبيد، اللذين صحّ لهما قصائدُ بقدرِ عشرين. وإن لم يكن لهما غيرُهنّ، فليس موضعُهما حيث وُضعا من الشهرة والتّقديمة، ... ونرى أنّ غيرهما قد سقط من كلامه كلامٌ كثير، غير أنّ الذي نالهما من ذلك أكثر. وكنا أقدم الفحول، فلعلّ ذلك لذاك". واستدلّ بقول أبي عمرو بن العلاء [٢١: ٢٥/١]: "ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وأفرا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير".

وقد أضاف ابن سلام أسبابا أخرى أدّت إلى ضياح كثير من شعر شعراء الجاهلية القريبة من الإسلام غير قدّم زمن أصحابه فقال [٢١: ٢٥/١]: "فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه (الشعر) العرب، وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤوّلوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير".

فإذا كان عبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد وغيرهما من شعراء الجاهلية القريبة من الإسلام قد ضاع من شعرهم الكثير لقدم أزمانهم ولموت رواة أشعارهم وحفظته، فمن باب أولى يكون من كان قبلهم من شعراء الجاهلية الأولى أو العرب الأوائل بحسب تعبير ابن سلام قد ضاع معظم شعرهم، وذهب منه الكثير جدّا فلم يبق منه سوى ما بأيدي الرواة في زمن ابن سلام من أبيات ومقطوعات.

٤- إن ابن سلام وابن قتيبة وغيرهما من العلماء حين قدّموا بين يدي حديثهم عن امرئ القيس وغيره بعض المقطوعات والأبيات

من شعر الأوائل من شعراء العرب كان هدفهم التنبيه على أن فن الشعر قديم قدم العرب أنفسهم ، حتى لا يظن ظان ولا يتوهم متوهم - اعتمادا على ما بأيدي الرواة من الشعر الجاهلي - أن امرأ القيس ومهلهلا هما أول من اخترعا الشعر العربي ، وابتدعاه ابتداعا ، أو أنهما - كما ادعى الجاحظ - أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه. وأيضا التأكيد على أنهما مسبقان بكثير من الشعراء المجيدين الذين برعوا في فن الشعر بدليل هذا القليل الباقي من شعرهم والذي لا يختلف في جودته وحسن نظمه عن أنضج صور الشعر كما ظهرت على يد مهلهل وامرئ القيس ، فليس هناك فرق في الألفاظ والأساليب والأوزان والقوافي بين شعرهما وشعر من سبقهما ، مما يؤكد على أنهما تأثرا بشعر السابقين فسلكا طريقتهم ، واتبعوا منهجهم .

خامسا : إن من المسلم به أن الإبداع الشعري يقوم على سناقين ويطير بجناحين أولهما : الموهبة الأصيلة والطبع المتمكن . وثانيهما : الثقافة الواسعة وبخاصة الثقافة الفنية المستمدة من رواية الشعر وحفظه ، فالشاعر الذي يجتمع له هذان الأمران هو الشاعر المبدع أو الشاعر الفحل بحسب تعبير النقاد العرب القدامى .

يقول الأصمعي [٣١ : ١٩٧/١] : " لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعاني ، وتدور في مسامعه الألفاظ" . ويعلل يونس بن حبيب (ت: ١٨٢هـ) حاجة الشاعر إلى الرواية فيقول [٣١ : ١١٩٧] : " وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة" . ويقول ابن عبدربه [٤٣ : ٣٩٤/٥] : " سماع كلام الفصحاء المطبوعين ، ودرس رسائل المتقدمين هو على كل حال مما يفتق اللسان ، ويقوي البيان ، ويحدّ الذهن ، ويشدّ الطبع ،

إن كانت فيه بقية ، وهناك خبيّة" .

وعَدَ ابن رشيّق القيرواني (ت: ٥٦ هـ) أنرواية من أهمّ آلات الشّاعر وأدواته بعد الطّبع والموهبة فيقول [٣١ : ١٩٧/١] : "ولياخذ نفسه (الشّاعر) بحفظ الشعر والخبر ، ومعرفة النّسب ، وأيام العرب ؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريد من ذكر الآثار ، وضرب الأمثال ، وليعلّق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم ، فقد وجدنا الشّاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشّعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر راوية ، يريدون أنّه إذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهّل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضقّ به المذهب ، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضلّ واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو مائل بين يديه ؛ لضعف آلتِه : كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة" .

وتحفل كتب الأدب بأخبار الفحول من شعراء الجاهلية الذين تتلمذوا في طور نشأتهم على شعر آبائهم وأعمامهم وأقاربهم الأقربين من فحول الجاهلية ، فقد روى الصّغير شعر الكبير وتتلمذ عليه واحتذى طريقته ومنهجه حتّى اكتملت آلتُه وعُدّته فصار فحلاً . وقد روى العلماء [٥٨ : ٥] أنّ المرقش الأكبر عمّ المرقش الأصغر والمرقش الأصغر عمّ طرفة بن العبد ، وكان سعد بن مالك والد المرقش الأكبر شاعراً ، وذكروا [٥٦ : ١/١٧٤] أنّ الأعشى الكبير ميمون بن قيس كان راوية خاله المسيّب بن علس ، وأنّ المتلمس الضّبيّ خال طرفة بن العبد وقصّة رحلتها إلى عمرو بن هند في الحيرة - تلك الرحلة التي أوتت بحياة طرفة - معروفة مشهورة .

وذكر ابن سلام الجمحي [٢١ : ٩٧/١] : أنّ زهير بن أبي سلمى كان راوية أوس بن خنيس فحلّ مضر في الجاهلية ، وكان أوس زرج

أم زهير . وجاء في أخبار بشامة بن الغدير [٢١ : ٧١٨/٢] و [٢٣٩ : ٦١] : أنه كان أشعر غطفان في زمنه ، وأنه خال زهير ، وكان يُعجب زهيراً شعره . وكان بشامة حازماً سديد الرأي ، تصدر غطفان عن رأيه ومشورته إذا أرادت الغزو ، وكان مقعداً كثير المال ليس له ولد ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في إخوته وبني إخوته وأقاربه ، فأتاه زهير فقال : يا خاله ، ماذا قسمت لي ؟ فقال : أفضل ذلك كله وأجزله . قال : ما هو ؟ قال : شعري ورثتيه ، فمن أين جئت بهذا الشعر ؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينه !! ، قد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر هذا الحي من غطفان . فيزعم بعض العلماء أن زهيراً جاءه الشعر من قبل بشامة بن الغدير . وعلى زهير تتلمذ ابنه كعب بن زهير والحطيئة قال ابن سلام [٢١ : ١٠٤/١] : "وكان - الحطيئة - راوية لزهير وآل زهير". وقد نبه العلماء والنقاد على ما أخذه الشعراء اللاحقون من شعر السابقين اجتلاباً وتمثلاً ، وعلى ما أخذوه من أساليبهم ومعانيهم وصورهم احتذاءً وتأثراً . بل إن الشعراء الفحول الجاهليين قد اعترفوا بتأثرهم بشعر من سبقهم ، فمما ينسب إلى زهير بن أبي سلمى - وليس في ديوانه - اعترافه بأنه هو وأضرابه من الفحول قد تأثروا بشعر من سبقهم ، واحتذوا طريقتهم فقال :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مَعَارًا      أَوْ مَعَادًا مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورًا  
وعنرة بن شداد - وهو أقدم من زهير - يصرح بأن الشعراء قبله قد استقصوا كل المعاني ، فلم يتركوا فناً ولا غرضاً من فنون الشعر وأغراضه ، ولم يتركوا معنى من معانيه إلا وقد قالوا فيه على نحو يبدو منه أنهم لم يتركوا زيادة لمستزيد فيقول [٤٥ : ١٤٧] :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مَّرْدَمٍ      أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارُ بَعْدَ تَوْهَمِ  
ولبيد بن ربيعة يقر بأن الشعراء الناطقين البلغاء قد سلكوا طريق من قبلهم ، وانتفعوا بشعر من سبقهم فيقول [٤٢ : ١٧٢] :

وَالشَّاعِرُونَ الشَّاطِطُونَ أَرَاهُمْ سَلَكَوا طَرِيقَ مُرْشٍ وَمَهْلِلٍ  
وقد افتخر بعض فحول شعراء الجاهلية بتأثرهم بشعر من  
سبقهم من الفحول ، وأنهم احتذوا مناهجهم وطرائقهم . يقول كعب

بن زهير [٦٢ : ١٣٧] :

فَإِنْ تَسْأَلِ الْأَفْوَامَ عَنِّي فَأِنِّي أَنَا ابْنُ أَبِي سَلَمَى عَلَى رَغَمٍ مِّنْ رَّغَمٍ  
أَتَى الْعَجَمَ وَالْأَفَاقَ مِنْهُ قِصَائِدُ بَقِيْنَ بَقَاءِ الْوَحْيِ فِي الْحَجَرِ الْأَصَمِ  
أَقُولُ شَبِيهَاتٍ بِمَا قَالَ عَالِمًا يَهْنُ وَمَنْ يُشَبِّهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ

ويقول أيضاً [٦٢ : ١٠٠] :

وَأَدْرَكْتَ مَا قَدْ قَالَ قَبْلِي يَدْرِهِ زُهَيْرٌ ، وَإِنْ يَهْلِكُ تَحْلُذُ نَوَاطِقِهِ  
والشاعر المخضرم مغدان بن جواس الكندي السكوني يقول

مفتخراً [٥٨ : ٣٣٥] :

وَرِثْتُ أَبَا حَوْطٍ حُجِّيَّةَ شِعْرِهِ وَأَوْرَثَنِي شِعْرَ السَّكُونِ الْمَضْرَبُ

وأبو حوط هو [٢٩ : ٧٧/١] : حُجِّيَّةُ بْنُ الْمَضْرَبِ السَّكُونِي

شاعر جاهلي وفارس مقدم ، وكلفت أم المؤمنين عائشة - رضي الله  
عنها - يعجبها شعره ، فقد أثر عنها قولها [ اللسان : روى ] :  
"ترووا شعر حُجِّيَّةَ بْنِ الْمَضْرَبِ فَلَقَهُ يُعِينُ عَلَى الْبَرِّ" .

وقد سبق أن ذكرنا أبيات القرزدي التي أولها [٥٤ : ٤٩٣] :  
وَهَبِ الْقِصَائِدَ لِي التَّوَابِعُ إِذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرُونَ  
وبعد أن عدد جمعا غفيرا من الفحول الجاهليين والمخضرمين

قال :

دَفَعُوا إِلَيَّ كِتَابَهُنَّ وَصِيَّةً فَوَرِثَهُنَّ كَأَنَّهُنَّ الْجَنَادُ

وامرؤ القيس ومهلل ليسا بدعا من الشعراء ، ولا بخارجين  
عن هذه القاعدة ، فمن المؤكد أنهما تتلمذا على شعر من سبقهما من  
شعراء الجاهلية ، فقد ذكر ابن رشيقي القيرواني [٣١ : ١٩٨/١] :  
"أَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ كَانَ رَاوِيَةَ أَبِي دُوَادِ الْإِيَادِي : مَعَ فَضْلِ نَحِيْزَةٍ ،  
وَقُوَّةِ غَرِيْزَةٍ ، وَلَا يَدُّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ يُلَوِّذُ بِهِ فِي شِعْرِهِ ، وَيَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ  
كَثِيرًا" . ولعل هذا يفسر لنا سرَّ إبداع امرئ القيس في وصف الفرس

فقد كان أبو دؤاد كما يقول ابن قتيبة [٥٦ : ٢٣٨/١] : "أحد نعات الخيل المجيدين، قال الأصمعي: هم ثلاثة : أبودؤاد في الجاهلية، وطفيل (الغنوي) والنايعة الجعدي". وقال ابن الأعرابي [٤ : ٣٧٥/١٦] : "لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد". وقد جاءت براعة أبي دؤاد في نعت الخيل لأنه كما قيل [٤ : ٣٧٥/١٦] : "إنما أحسن نعت الخيل لأنه كان على خيل المنذر بن النعمان". والمنذر هذا حكم الحيرة كما يقول المؤرخون [٦٤ : ٥٨٥] في الفترة بين سنتي (٤١٨-٤٦٢م) بعد أبيه النعمان صاحب قصر الخورنق الذي بناد له ستمار الرومي. وهذا يدل على أن أبا دؤاد الإيادي أسبق من مهلهل وامرئ القيس، ولهذا نص الأصمعي على جاهليته، ومما يفيد أنه جاهلي قديم أبيات سرقة البارقي التي سبق أن أشرنا إليها عند حديثنا على قدم بعض الشعراء قبل مهلهل وامرئ القيس ، وفيها :

وَأَبُو دُؤَادٍ كَانَ شَاعِرًا مَيِّ  
أَقْلَتَ نَجْوَاهُمْ وَلَمَّا يَأْقُلْ

وقد صرح امرؤ القيس نفسه بتأثره بشعر من سبقه ، وانتفاعه بمذاهبهم وطرقتهم فذكر أنه تأثر بابن حذام - أو ابن حمام - في الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار والدمن ، فقال [٥٧ : ٢٢١] :

عُوجًا عَلَى الطَّلِي الْمَجِيلِ نَعْلًا  
نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامِ

وابن حذام هذا غير معروف ، ولا روى له الرواة شعرا ولا ذكره أحد من الشعراء ، وقد علق ابن سلام الجمحي على بيت امرئ القيس فقال [٢١ : ٣٩/١] : "هو رجل من طيء لم نسمع شعره الذي بكى فيه ، ولا شعرا غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس". وقيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى [١ : ١٠٩] و [٢٤ : ٤٥٦] : "هل قال الشعر أحد قبل امرئ القيس؟ قال : نعم . قدم علينا رجال من بادية بني جعفر بن كلاب ، فكنّا نأتيهم فنكتب عنهم ، فقالوا : ممن ابن حذام ؟ قلنا : ما سمعنا به، قالوا : بلى . قد سمعنا به ورجونا أن

يكون عندكم منه علم ؛ لأنكم أهل أمصار ، ولقد بكى في الدمن قبل امرئ القيس".

ونرجح أن ابن حزام شاعر قديم أقدم ممن نعرفهم من شعراء الجاهلية المعروفين؛ لأن بكاء الديار والوقوف على الأطلال ، والافتتاحية الغزلية بصورها المختلفة موجودة في شعر من هم أسبق زمانا من امرئ القيس ومهلل كأبي نواد الإيادي<sup>(١)</sup> ، وموجوده في شعر معاصري مهلل كالمرقش الأكبر<sup>(٢)</sup>، وتغلبه بن صعيبر المازني<sup>(٣)</sup> الذي قال عنه الأصمعي [٣٩ : ١٢/١] : "تغلبه أكبر من جد لبيد". ولبيد بن ربيعة شاعر مخضرم معمر عاش في الجاهلية أكثر من تسعين عاما . ثم إن بكاء الديار والدمن والوقوف على الأطلال موجود في قصائد عدد من فحول الجاهلية الذين عاصروا امرأ القيس وكانوا أكبر منه سناً من أمثال عبيد بن الأبرص<sup>(٤)</sup>، وعمر بن قميئة<sup>(٥)</sup>، مما يدل على أن بكاء الأطلال كان تقليداً فنياً تفتتح به القصائد قبل مهلل وامرئ القيس بزمان طويل .

فمن يطالع ديوان مهلل بن ربيعة التغلبي - وهو أكبر سناً من امرئ القيس - يجد بيتاً مفرداً يبكي فيه مهلل الديار والأطلال فيقول [٧٥ : ١٣] :

يَمْنِي الدَّارَ أَقْفَرَتْ بِالسَّخَالِ دَارَ عَاتِقَةٍ وَنُونٍ مُذْ آخِوَالِ

(١) الأصمعيّات : القصيدة رقم : ٦٥ .

(٢) المفضلّيات : القصائد رقم : ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٤ .

(٣) المفضلّيات : القصيدة رقم : ٢٤ .

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص القصائد ذات الأرقام : ١ - ٤ - ٥ - ٩ - ١٦ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٦ - ٣٠ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٤٠ - ٤٦ - ٤٧ .

(٥) ديوان عمرو بن قميئة : القصائد رقم : ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٣ - ١٥ .

ولعلّ هذا البيت مطلع إحدى قصائده التي تغنى بها في أيام شبابه ولهوه وصبوته قبل أن ينشغل بأخذ ثأر أخيه كليب ، ولكن القصيدة ضاعت ولم يبق منها سوى هذا البيت .

وأيضاً يجد قصيدته التي عارض بها الحارث بن عباد اليكري جاءت مبدوءة بهذا المطلع [١٣ : ٧٠] :

هَلْ عَرَفْتَ الْعَدَاةَ مِنْ أَطْلَالٍ	رَهْنِ رِيحٍ وَدِيَمَةٍ مَهْطَالٍ
يَسْتَبِينُ الْحَلِيمُ فِيهَا رَسُولًا	دَارَسَاتِي كَصَنْعَةِ الْعَمَالِ
قَدْ رَأَاهَا وَأَهْلَهَا أَهْلٌ صَدِيقٌ	لَا يُرِيدُونَ يَتِيَّةَ الْارْتَحَالِ
يَا قَوْمِي لِلْوَصَةِ الْيَبَّالِ	وَلَقَدْ ثَلَّ الْكَمَاةَ وَالْأَبْطَالِ

فالقصيدة مبدوءة ببكاء الأطلال ، ولكننا نرجّح أن مطلعها هو البيت الرابع " يا قومي للوعة ... البيت " ، أما الأبيات الثلاثة قبله فهي مطلع قصيدة أخرى من قصائده التي قالها في شبابه ، ولكن القصيدة ضاعت ولم يبق منها سوى هذه الأبيات الثلاثة فجاء للرؤاة أو جامع الديوان فألحقها بقصيدته التي عارض بها مهلهل قصيدة الحارث بن عباد ؛ لأنّ الحارث لم يبدأ قصيدته ببكاء الأطلال وإنما بدأها بالتفجّع على بجير ابن أخيه الذي قتله مهلهل "بشنع نعل كليب" وتهديد تغلب بحرب لا تبقي ولا تذر . فقال [١٩ : ١٦٠] :

كُلُّ شَيْءٍ مَصِيرَةٌ لِلرَّوَالِ	فَيَرْزِي وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وَتَرَى النَّاسَ يَنْظُرُونَ جَمِيعًا	لَيْسَ فِيهِمْ لِيَذَاكَ بَعْضُ احْتِيَالِ
قُلْ لَأَمْ الْأَعْرَ تَبْكِي بِجِيرًا	مَا أَتَى الْمَاءُ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ
لَهْفًا نَفْسِي عَلَى بَجِيرٍ إِذَا مَا	جَاءَتِ الْخَيْلُ يَوْمَ حَرْبِ عَصَالِ
يَا بَجِيرَ الْخَيْرَاتِ لَا صَلَحَ حَتَّى	تَمْلَأَ الْيَبَدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجَالِ

ثم إن مهلهلا لم يبدأ قصائده التي قالها بعد مقتل أخيه كليب بالغزل وبكاء الأطلال ، ولكنه كان يفعل ذلك قيل أن ينهض للأخذ بثأر أخيه كليب ، وقد عبّر عن ذلك بقوله [١٣ : ٦٥] :

أَرْجُرُ الْحَيْنَ أَنْ تَبْكِي الظُّلُولَا	إِنَّ فِي الصَّدْرِ مِنْ كَلْبٍ غَلِيلَا
كَيْفَ يَبْكِي الظُّلُولُ مَنْ هُوَ رَهْنٌ	بِطَعَانِ الْأَنْبَامِ جِيلًا قَبِيلَا

إن هذه الأبيات من شعر مهلهل تؤكد على أن بكاء الأطلال



والوقوف على الآثار والدَّمن كان تقليداً فنياً لدى من سبقه من الشعراء ، وأن مهلهلاً ومعاصريه قد احتقوا طريقتهم ، واتبعوا منهجهم ، ولكن شعر السَّابِقين ضاع مع ما ضاع من أخبار العرب الأوائل للأسباب والعوامل التي سبق أن أشرنا إليها ، فلما جاء عصر التدوين في القرن الثاني الهجري كان قد مرَّ على النَّاس أجيال وأجيال وقرون وقرون فلم يجد جُماع الشَّعر ورواته من شعر السَّابِقين من العرب الأوائل سوى أبيات ومقطوعات ، ولم يجدوا سوى ما قاله الشعراء منذ مهلهل وأضرابه الذين لا يزيد عهدهم عن قرنين من الزَّمان قبل الإسلام ، بل إنَّ الذَّاكرة العريضة - باعتراف العلماء - لم تستبق كلَّ الشعر الَّذي قيل في الجاهلية القريبة من الإسلام ، وإنَّما احتفظت بما قاله الشعراء وكان متصلاً بالحروب والصِّراعات التي نشبت بين قبائل العرب قبل الإسلام .

فجاء رواة الشَّعر ومُتذوِّقوه من أمثال الجاحظ فحسبوا ما أمامهم من شعر الجاهليين يمثل كلَّ ما قالوه من شعر ، وظنَّوا هذه الصُّورة النَّاقصة منه صورة كاملة ، فحكموا بصغر عُمُر الشَّعر وحداثه ميلاده وأنَّه يبدأ بمهلهل وامرئ القيس . ولكن كلَّن على الجانب الآخر رواة متخصصون ، وعلماء نذروا حياتهم لجمع الشَّعر القديم والعُكوف على درسه وفحصه ، ومعرفة مسيرته وعوامل ازدهاره ، فأدركوا أنَّ الشَّعر أقدم من مهلهل وامرئ القيس ، وأنَّ ازدهاره على يديهما في نجد وعرب الشَّمال قد سبقته مرحلة ازدهر فيها الشَّعر في اليمن .

لقد كان الشَّعر بإقرار العلماء مزدهراً في اليمن قبل أن يزدهر في نجد على يد الشعراء من ربيعة ومُضر أبناء نزار بن معد بن عدنان ، وقبل أن يزدهر على يد مهلهل وامرئ القيس ، بل إنَّ امرأ القيس - مع قوَّة طبعه - قد تأثَّر بشعراء اليمن واستفاد من مذهبهم وطرائقهم الفنيَّة ، فمع عيشة أهله وإقامتهم في نجد إلاَّ أنَّه

بحكم أصله اليماني كانت له رحلات متعدّدة منذ شبابه الباكر إلى اليمن ، وقد أثرت هذه الرّحلات وما رواه من شعر شعراء اليمن ونجد في صقل موهبته وقوة طبعه ، فجاء شعره مجوّدًا إجادة طبع بعيدًا عن التّقليد والاتباع ، فحقّق لنفسه ولشعره مزية التّفرد على غيره من الشعراء ، فتأثّروا به سواء في ذلك شعراء اليمن وشعراء نجد ، فكان أستاذًا لهم وإمامًا بما فتح لهم من معاني الشعر ، وبما سهّل لهم من طرقه وأساليبه .

جاء في سوالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي [٣٤ : ٦١] :  
 "قال الأصمعي : سئل شيخ عالم عن الشعراء ، فقال : كان الشعر في الجاهلية في ربيعة ، وصار في قيس . ثم جاء الإسلام فصار في تميم . قلت للأصمعي : لم لم يذكر اليمن ؟ . فقال : إنما أراد بني نزار ، فأما هؤلاء كلّهم فإنما تعلموا من رأس الشعراء : امرئ القيس . وإنما كان الشعر في اليمن " .

وقد علّق الدكتور عبد الكريم حسين - حفظه الله - على كلام الأصمعي فقال [٢٥ = ٥٤] : "فامرو القيس متقدّم على بني نزار تقدّمًا مسوغًا بتقدّم قومه من أهل اليمن ، وباقتداره على فتح أبواب الشعر لتلج الشعراء من بعده ، وتتبعه استحسانًا لما فعل ، فأوليّة الشعر من جهة علوّ الطاقة كانت لليمن في طور من أطوار النهوض الحضاري في تلك البلاد ، وقبل أن تنتقل تلك القوة منها إلى بلاد الحجاز ونجد ، يدك على ذلك فعل "كان" التامة ؛ لأنها بمعنى (وجد) .... فريادة الشعر عند الأصمعي لامرئ القيس اليماني الأصل ، وعنه أخذ بنو نزار ، ممّا يجعل امرأ القيس حاملًا مشعل الطاقة الحضارية اليمانية قبل أقولها ، ويجعله غريبًا في مكانها ، مرتحلًا بقبسها إلى نجد ، فكانت له الريادة في بيئة نجد ، وكان له فضل اللّحاق الحضاري باعتبار أصل إبداعه وطاقته " .

فالأصمعي العالم الراوية مقررًا بازدهار الشعر في اليمن قبل أن يزدهر في نجد على يد الشعراء من ربيعة وقيس أبناء نزار ، ولهذا صدر قوله "وإنما كان الشعر في اليمن" ، بأداة التوكيد "إنما" وهي تجيء في الكلام للدلالة على أن الخبر معلوم غير منكور ، وظاهر غير خفي ، لا يستطيع المخاطب أن ينكره أو يدفعه . يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) [٢٠ : ٣٣٠] : "اعلم أن موضوع "إنما" على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة" . وليس معنى إقرار الأصمعي بأسبقية اليمن في الشعر على أبناء نزار أنه إقرار بأولية قول الشعر وبدء نشأته ، وإنما هو إقرار واعتراف بأولية التجويد والنضج الفني للشعر على أيدي شعراء اليمن قبل أن ينضج ويزدهر في عرب الشمال على يد امرئ القيس وغيره من أبناء نزار ، فاليمن منذ أقدم العصور كانت به نهضة ثقافية وشعرية مزدهرة ، يدل على ذلك ما في كتاب "التيجان" لابن منبه وكتاب "الإكليل" للهمداني حيث روي شعرا كثيرا لشعراء اليمن الأقدمين قبل مهلهل وامرئ القيس .

ولا نشك في أن أبا حاتم السجستاني كان مقررًا - كأستاذه الأصمعي - بازدهار الشعر في اليمن قبل ازدهاره في نجد ، فهو كما قيل عنه [٦ : ١٦٨] : "كان عالما ثقة قيما بعلم اللغة والشعر" . ولهذا تعجب من إغفال الشيخ العالم الإشارة إلى اليمن وشعرائها . فبين له أستاذه الأصمعي أن غرض الشيخ هو الحديث عن القبائل والبيئات التي ازدهر فيها الشعر عند عرب الشمال من أبناء نزار ، وليس غرضه تتبع المراحل التي ازدهر فيها الشعر خلال مسيرته الطويلة منذ أقدم عصور الجاهلية .

لقد بنى هذا الشيخ العالم رأيه في حركة الشعر وتنقله بين قبائل نزار ، فجعله أولا في ربيعة اعتمادا على ما بأيدي الرواة من شهر

شعرائها كمهلهل والمرقش الأكبر وسعد بن مالك والحارث بن عبّاد وغيرهم من الشعراء الفحول الذين أججوا بسيوفهم وألسنتهم نار حرب البسوس التي لم تكد تنتهي حتى اشتعلت نيران الحرب بين قبائل قيس وغيرها من القبائل كتميم وكنانة ، بل إنّ جذوتها قد اشتعلت بين قبائل قيس نفسها وكان أشهرها حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان ابني بغيض ، وقد أثمرت حروب قيس في الجاهلية عددا من الشعراء الفرسان مثل عنتر بن شدّاد ، وخفاف بن ندبة وعبّاس بن مرداس ودريد بن الصمّة ، وإلى جوارهم ظهر فرسان الشعر من أمثال النابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعروة بن الورد ، وخداش بن زهير ، ولبيد بن ربيعة ، والخنساء وغيرهم ممّا جعل لواء الشعر يتحوّل من ربيعة إلى قيس .

فلَمَّا منَّ الله جلَّ وعزَّ على العرب وعلى البشرية جمعاء ببعثة نبيّه ورسوله محمد بن عبد الله - ﷺ - ودخل العرب في دين الله أفواجا توحد العرب في أمة واحدة وصاروا بنعمة الله إخوانا بعد أن كانوا قبائل متفرقة ، وأشتاتا متعادين متناحرين ؛ لأنّ الإسلام بتعاليمه السّمتحة أمت نعمة العصبية القبليّة ، وقضى على حميّة الجاهليّة ، ولكن العوامل السّياسيّة والاجتماعيّة في عصر بني أميّة قضت بظهور صراع من لون جديد أدّى إلى انتقال راية الشعر إلى بني تميم ، وقد تمثل هذا الصّراع في الحرب الكلاميّة التي قامت بين فحلي تميم ومُضر الفرزدق (ت: ١١٠هـ) وجريّر (ت: ١١٠هـ) وشاركهما فحول شعراء تميم في العصر الأمويّ في رفع راية الشعر وحمل لوائه وازدهاره ، فقد كان لكلّ منهما مناصرون ومؤيّدون من الشعراء والرّجّاز .

وإذا كانت حروب ربيعة وحروب قيس في الجاهليّة قد أدّت إلى ازدهار فنّ الحماسة القائم على التّعني بالبطولة والفروسيّة فإنّ

الصراع بين جرير والفرزدق الذي شغل الناس ما يقرب من خمسين عاما قد أدى إلى ازدهار فن النفاذ القائم على التهاجي والإفحاش في السبب وتناول الحرمات والأعراض .

مما سبق يتضح أن الشيخ العالم كان يتحدث عن حركة الشعر العربي وتنقله في قبائل العرب من أولاد نزار بن معد ، ولم يكن يتحدث عن مسيرة الشعر في رحلته الطويلة ، بينما الأصمعي العالم الراوية كان على بصر برحلة الشعر الممتدة في الزمان والمكان ، عارفا بأطوار ازدهاره ، فأشار إلى مرحلة نضجه الفني في اليمن قبل أن يزدهر في نجد على يد مهلهل وامرئ القيس ، وألمح إلى أن امرأ القيس بحكم أصله اليماني ورحلاته المتعددة في صدر شبابه إلى اليمن قد تأثر بالشعر في اليمن ولكنه لأصالة موهبته ، وقوة طبعه لم يكن مقلدا ، وإنما حمل مشعل الشعر من اليمن إلى نجد فاتحاً به للشعراء أبواباً بما ابتكر من المعاني والصور والتشبيهات والأساليب فتعلم منه الشعراء ، واحتذوا مذهبه ، واتبعوا طريقته سواء في ذلك شعراء اليمن وشعراء نجد .

إن المتأمل في شعر مهلهل وامرئ القيس يجد على درجة عالية من الإبداع والنضج الفني ، ويجد فيه قدراً هائلاً من التنوع في بحور الشعر وأوزانه وقوافيه<sup>(١)</sup> ، وهذا لا يمكن أن يتم على يد شاعر

---

(١) جاءت أوزان شعر المهلهل على أوزان البحور التالية : الخفيف ١٠٥ أبيات ، والوافر ٩٩ بيتاً ، والكامل ٩٠ بيتاً ، والسريع ٣٧ بيتاً ، والبسيط ٣١ بيتاً ، والهزج ١٩ بيتاً ، والطويل ١٥ بيتاً ، والمديد ١١ بيتاً ، والمنسرح ٩ أبيات ، ولكل من الرجز والمتقارب ٤ أبيات .

وأما شعر امرئ القيس فجاء أغلبه على بحر الطويل ٤٤٧ بيتاً يليه المتقارب ٧٩ بيتاً ، والكامل ٦٠ بيتاً ، والبسيط ٥٩ بيتاً ، والوافر ٥٤ بيتاً ، والرجز الثام ٣ أبيات والرجز المشطور ١١

أو شاعرين ولا في جيل أو جيلين ، مما يؤكد على أنهما مسبقان بمحاولات عديدة قطع فن الشعر خلالها مراحل كثيرة ومرّ بأطوار متعدّدة على أيدي جماعة من الشعراء أسبق منهما زمنا ، وأقدم عهدا ، استطاعوا بمواهبهم الفنيّة أن يذلّوا طريق الشعر ويمهّدوه لمن يأتي بعدهم ، وقد ورث مهلهل وامرؤ القيس هذا التراث الشعري الذي تعهّدته الأجيال قبلهما بالصقل والتّهذيب والتّثقيف فتمثّلاه ، وتأثّرا به ، حتّى وصلا إلى ما وصلا إليه من إبداع شعري متميّز ، بفضل موهبتهما الأصليّة ، وطبعهما القوي ، وثقافتهما الفنيّة ، وتمكّنهما من أصول فنّ الشعر وقواعده ، تلك القواعد والأصول التي أرسى عيادها من سبقهما من الشعراء .

إنّ شعر مهلهل وامرؤ القيس ليس فيه ما يدلّ على أنّ قائله شاعر مبتدئ يعالج قول الشعر ، ويكابذ نظمه ، ويعاني ترويضه وتذليله ، وليس فيه ما يدلّ على أنّه محاولات أوليّة ، فيها ما قد يكون في البدايات من نقص أو خلل ، وإنّما هو شعر ناضج فنيّا ، مستوفٍ للشروط الفنيّة الخاصّة بالشعر ، ممّا يدلّ على أنهما لم

شظرا ، والمديد ١٢ بيتا ، ولكلّ من المنسرح والرمل ١٠ أبيات ثمّ السّريع بيت واحد .

وتلاحظ غلبة البحور السّريعة الإيقاع كالخفيف والوافر والكمال على شعر مهلهل نظرا لظروفه النفسيّة وعاطفته النّائرة . أمّا امرؤ القيس فجاء أغلب شعره على وزن بحر الطّويل لأنّه كان ينظم وهو في حالة من التّأمّل والهدوء العاطفي . كما نلاحظ أنّ مهلهلا انفرد بالنّظم على بحر الهزج والخفيف ، بينما انفرد امرؤ القيس بالنّظم على وزن بحر الرمل . أمّا القوافي فقد جاءت قافية المتدارك (٥//٥/) غالبة على سائر القوافي في شعر امرؤ القيس يليها قافية المتواتر (٥/٥/) والمتراكب (٥///٥/) ثمّ المترانف (٥٥/) بينما غلبت قافية المتواتر على شعر المهلهل يليها المترانف والمتدارك ثمّ المتراكب . وليس لهما شعر على قافية المتكاوس (٥////٥/).

يستحدثنا هذا القدر الهائل من الإبداع الشعري في الأسلوب والأوزان والقوافي والمعاني والصُّور ، ويؤكد على أنهما ليسا أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه ، وينفي ادعاء الجاحظ صغر سن الشعر وحادثة ميلاده .

## الخاتمة

نقول في طمأنينة علمية إن قول الجاحظ بصغر سن الشعر ، وأن عمره لا يتجاوز مائة وخمسين عاما قبل الإسلام ، أو مائتي عام بغاية الاستظهار إنما هو قول غير صحيح لم يقم على دوافع أصيلة أو أسس مكيئة ، حيث نظر الجاحظ في أقوال سابقيه ومعاصريه التي تثبت لامرئ القيس ومهلل سبقا فنياً ونقلها من سياقها إلى سياق آخر هو الحكم على الشعر نفسه ، وتقدير عمره وسنه رغبة منه في التفوق ، وأنه أتى بما لم يأت به أحد من سابقيه أو معاصريه .

وقد ثبت من مناقشة أدلته ضعفها ووهيها ، فليس لها عماد تقوم عليه ، ولا أسس تستند إليها من شعر العرب ، ولا من شعر الأمم الأخرى .

وقد تبين لنا أن ما أوقع الجاحظ في خطأ القول بصغر سن الشعر ، هو أن الجاحظ كان أديبا معجبا بنفسه ، مزهوا بعلمه ، وسعة ثقافته ، وأن نزعه الفنية والأدبية قد تحكمت في منهجه في رواية الشعر قديمه وحديثه فلم يتخصص في روايته ودرسه ، ووجهت إقباله على حفظه وتذوقه فلم يرو من الشعر إلا ما وافق ذوقه واتفق مع نزعه الفنية والأدبية .

وأیضا عدم التفاته إلى حياة العرب وطبيعتهم النفسية ، وخصائص لغتهم التي تمتاز بالموسيقية الكامنة في أصل مبناها وتكوينها ، وتناسيه أن الشعر ظاهرة فنية ، يحتاج في نضجه إلى تجارب متعددة ومران طويل على أيدي أصحاب المواهب الشعرية عبر أجيال وأجيال ، يستفيد فيها كل جيل من خبرات السابقين .

وختاماً نؤكد على أن الجاحظ علم من أعلام الثقافة العربية لا يقتل من مكانته أن نطرح من أقواله ما لم يقم عليه دليل ، من حياة العرب ولغتهم وأشعارهم . فإن كنت قد وفقت فله وحدد الفضل



والمنّة ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ، وحسبي أني بذلت الجهد  
بقدر الوسع والطاقة ، وصلى الله على سيدنا ونبيّنا محمد وعلى آله  
وأصحابه والتّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

## قائمة المراجع

- [١] الأمدي : قَبُو القاسم الحسن بن بشر - المؤلف والمختلف في  
أسماء الشعراء - بيروت ، دار الكتب العلمية ،  
الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- [٢] ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني - الكامل في  
التاريخ - بيروت ، دار الفكر ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- [٣] أرسطو طليس : - فن الشعر - ترجمة وشرح د/ عبد الرحمن  
يدوي - بيروت - دار الثقافة .
- [٤] الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين - الأغاني - مصورة  
عن طبعة دار الكتب المصرية .
- [٥] الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب - الأصمعيّات -  
تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون - دار  
المعارف بمصر - الطبعة الرابعة .
- [٦] الأتباري : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد -  
نزهة الألباء في طبقات الأدباء - تحقيق محمد  
أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - دار الفكر العربي  
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- [٧] البارقي : سراقفة بن مرداس - ديوان سراقفة البارقي - بتحقيق  
د/ حسين نصار - القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية -  
١٣٦٦هـ .
- [٨] البخاري : الإمام أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم - كتاب الكنى  
- ملحق بكتاب التاريخ الكبير للبخاري المجلد الثامن  
- القسم الثاني من الجزء الرابع - بيروت - مؤسسة  
الكتب الثقافية .

- [٩] بروكلمان : كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربي - نقله إلسي العربية د/ عبد الحليم النجار - دار المعارف بمصر - الجزء الأول - الطبعة الخامسة .
- [١٠] البغدادي : عبد القادر عمر - خزانة الأدب - تحقيق عيد السلام محمد هارون - مكتبة الخاتجي بالقاهرة - ودار الرفاعي بالرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .
- [١١] البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز - معجم ما استعجم - تحقيق مصطفى السقا - بيروت عالم الكتب - الطبعة الثالثة - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .
- [١٢] البهيتي : الدكتور نجيب محمد - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري - الدار البيضاء - دار الثقافة - ١٩٨٢ م .
- [١٣] التغلبي : المهلهل بن ربيعة - ديوان المهلهل - شرح وتحقيق أنطوان محسن الفوال - بيروت - دار الجيل - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .
- [١٤] تغلب : أبو العباس أحمد بن يحيى - مجالس تغلب - شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .
- [١٥] الجاحظ : أبو عثمان بن عمرو بن بحر - البيان - بتحقيق طه الحاجري - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة .
- [١٦] الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر - البيان والتبيين - بتحقيق عبد السلام محمد هارون - الناشر مكتبة الخاتجي بالقاهرة - الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م .
- [١٧] الجاحظ : : أبو عثمان عمرو بن بحر - الحيوان - بتحقيق

وشرح عبد السلام محمد هارون - القاهرة - مكتبة  
ومطبعة البابي الحلبي - الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ -  
١٩٦٨م .

[١٨] الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر - رسالة حج النبوة  
(ضمن رسائل الجاحظ) - بتحقيق وشرح عبد السلام  
محمد هارون - الناشر مكتبة الخاتجي بالقاهرة -  
الطبعة الأولى - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

[١٩] جاد المولى : محمد أحمد وزميليه - أيام العرب في الجاهلية -  
منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت .

[٢٠] الجرجاني : الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن - دلائل  
الإعجاز - بتحقيق محمود محمد شاكر - نشر مكتبة  
الخاتجي بالقاهرة - الطبعة الخامسة - ١٤٢٤هـ -  
٢٠٠٤م .

[٢١] الجمحي : محمد بن سلام - طبقات فحول الشعراء - بتحقيق  
محمود محمد شاكر - القاهرة - مطبعة المدني -  
١٩٧٤م .

[٢٢] ابن حبان : الإمام الحافظ محمد بن حبان - كتاب المجروحين  
من المحدثين - تحقيق محمود إبراهيم زايد - سوريا  
دار الوعي بحلب - الطبعة الثانية - ١٤٠٢هـ .

[٢٣] ابن حبيب : أبو جعفر محمد بن حبيب - المحبر - رواية أبي  
سعيد الحسن السكري - اعتنى بتصحيحه الدكتور  
إيلزه ليختن - بيروت منشورات المكتب التجاري .

[٢٤] ابن حزم الأندلسي : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد - جمهرة  
أنساب العرب - تحقيق عبد السلام محمد هارون -  
مصر - دار المعارف - الطبعة الرابعة .

- [٢٥] حسين : الدكتور عبد الكريم محمد - فحولة الشعراء عند الأصمعي - دمشق - دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٤٢٥/١٤٢٦هـ - ٢٠٠٤/٢٠٠٥ م .
- [٢٦] حميدة : الدكتور عبد الرازق حميدة - شياطين الشعراء - القاهرة - مكتبة الأجلو المصرية .
- [٢٧] ابن حنبل : الإمام أحمد بن محمد - المسند - شرح أحمد محمد شاكر - القاهرة - دار الحديث - الطبعة الأولى - ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م .
- [٢٨] الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي - تاريخ بغداد - المدينة المنورة - المكتبة السلفية .
- [٢٩] الخطيب التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي - شرح ديوان الحماسة (أبو تمام) - بيروت - عالم الكتب .
- [٣٠] ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن - الاشتقاق - تحقيق عبدالسلام محمد هارون - بيروت - دار الجيل - الطبعة الأولى - ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .
- [٣١] ابن رشيقي : أبو علي الحسن بن رشيقي - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد - بيروت - دار الجيل - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢ م .
- [٣٢] الزبيدي : عمرو بن معد يكرب - ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي - صنه هاشم الطعان - العراق - مكتبة الجمهورية - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠ م .
- [٣٣] الزركلي : خير الدين - الأعلام - بيروت - دار العلم للملايين - الطبعة السابعة ١٩٨٦ م .

- [٣٤] السجستاني : أبو حاتم سهل بن محمد - سؤالات أبي حاتم  
السجستاني للأصمعي (فحولة الشعراء) - تحقيق  
د/محمد عودة سلامة أبو جري - القاهرة - مكتبة  
الثقافة الدينية - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م .
- [٣٥] السجستاني : أبو حاتم سهل بن محمد - المعمرون والوصايا -  
تحقيق عبد المنعم عامر - القاهرة - دار إحياء الكتب  
العربية عيسى الحلبي وشركاه - ١٩٦١ م .
- [٣٦] السهيلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي الحسن الخثعمي -  
الروض الأنف - بتعليق طه عبد الرؤوف سعد -  
بيروت - دار الفكر ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م .
- [٣٧] السيوطي : عبد الرحمن جلال الدين - المزهر في علوم اللغة -  
شرح محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد  
أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - مكتبة دار التراث -  
الطبعة الثالثة .
- [٣٨] شاكر : الشيخ محمود محمد - قضية الشعر الجاهلي في كتاب  
ابن سلام - مطبعة المدني بمصر ودار المدني بجدة -  
الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م .
- [٣٩] الضبي : المفضل بن محمد بن يعلى - المفضليات - تحقيق  
أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - مصر - دار  
المعارف - الطبعة السادسة .
- [٤٠] ضيف : الدكتور شوقي - الفن ومذاهبه في الشعر العربي -  
مصر - دار المعارف - الطبعة العاشرة .
- [٤١] أبو الطيب اللغوي : عبد الواحد بن علي - مراتب النحويين -  
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي  
- الطبعة الثانية .

- [٤٢] العامري : ليبد بن ربيعة - ديوان ليبد بن ربيعة (شرح الطوسي) - تقديم الدكتور حنا نصر الحتي - بيروت - دار الكتاب العربي - الطبعة الثانية - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- [٤٣] ابن عبدربه : أبو عمر أحمد بن محمد - العقد الفريد - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثالثة - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
- [٤٤] عبد الرحمن : الدكتور عفيف محمد - معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين - بيروت - دار العلوم للطباعة والنشر - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- [٤٥] العبسي : عنتر بن شداد - شرح ديوان عنتر للخطيب التبريزي - تقديم مجيد طراد - بيروت - دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- [٤٦] العبودي : محمد بن ناصر - معجم بلاد القصيم - الرياض - الطبعة الثانية - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- [٤٧] أبو عبيدة : معمر بن المثنى - كتاب النقائض (نقائض جرير والفرزدق) - طبعة ليدن ١٩٠٥م .
- [٤٨] العتوم : الدكتور علي العتوم - قضايا الشعر الجاهلي - الطبعة الأولى - ١٩٨٤م - ١٩٨٥م .
- [٤٩] ابن عساكر : الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن - تاريخ مدينة دمشق - دراسة وتحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي - بيروت - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- [٥٠] العقاد : عباس محمود - اللغة الشاعرة - القاهرة مكتبة غريب .

- [٥١] عوض : الدكتور لويس - المعجم الكلاسي (ضمن كتاب  
نصوص النقد الأدبي اليونان ) - الجزء الأول دار  
المعارف بمصر - ١٩٦٥ م.
- [٥٢] عياد : الدكتور شكري محمد - كتاب أرسطو طاليس في الشعر  
- القاهرة - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر -  
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م.
- [٥٣] عياد : الدكتور شكري محمد - المذاهب الأدبية والنقدية عند  
العرب والغربيين - الكويت - عالم المعرفة العدد رقم  
١٧٧ .
- [٥٤] الفرزدق : همام بن غالب - ديوان الفرزدق - بشرح علي  
فاعور - بيروت دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى  
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- [٥٥] القالي : أبو علي إسماعيل بن القاسم - الأمل - بيروت - دار  
الكتاب العربي .
- [٥٦] ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم - الشعر والشعراء -  
تحقيق أحمد محمد شاكر - القاهرة - دار المعارف  
بمصر - ١٩٦٦ م .
- [٥٧] الكندي : امرؤ القيس بن حجر - ديوان امرؤ القيس - بشرح  
حسن السندوبي - بيروت - دار إحياء العلوم -  
الطبعة الأولى - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- [٥٨] المرزباني : أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى - معجم  
الشعراء - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - مصر -  
الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة الذخائر رقم  
٩٣ - إبريل ٢٠٠٣ م .
- [٥٩] المرزباني : أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى - الموشح



- تحقيق علي محمد البجاوي - القاهرة - دار نهضة

مصر - ١٩٦٥م.

[٦٠] المرعي ومرشحة : الدكتور فؤاد المرعي والدكتور محمد

مرشحة - محاضرات في الآداب العالمية - منشورات

جامعة حلب - سوريا - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

[٦١] المزني : زهير بن أبي سلمى - ديوان زهير بن أبي سلمى -

صنعه أبي العباس ثعلب - تحقيق الدكتور فخر الدين

قباوة - بيروت - منشورات دار الآفاق الجديدة -

الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

[٦٢] المزني : كعب بن زهير - ديوان كعب بن زهير - صنعه الإمام

أبي سعيد السكري - شرح ودراسة د/ مفيد قميحة -

الرياض - دار الشواف للطباعة والنشر - الطبعة

الأولى - ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

[٦٣] المعيني : الدكتور عبد الحميد محمود - شعر بني تميم في

العصر الجاهلي - منشورات نادي القصيم الأدبي

ببريدة - المملكة العربية السعودية - ١٤٠٢هـ -

١٩٨٢م

[٦٤] مهران : الدكتور محمد بيومي - دراسات في تاريخ العرب

القديم - الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية - لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر

- الطبعة الثانية - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

[٦٥] النديم : أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق - الفهرست -

تحقيق رضا تجدد بن علي - بيروت - دار المسيرة -

الطبعة الثالثة - ١٩٨٨م.

[٦٦] النهشلي : أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم - اختيار الممتع في علم الشعر وعمله - تحقيق الدكتور محمود شاكر القطان - مصر دار المعارف - الطبعة الأولى - ١٩٨٣ م .

[٦٧] الهيثمي : الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - بيروت - دار الكتاب العربي - الطبعة الثالثة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

